لا شيء يحدث هنا

وائل ياسين

رواية

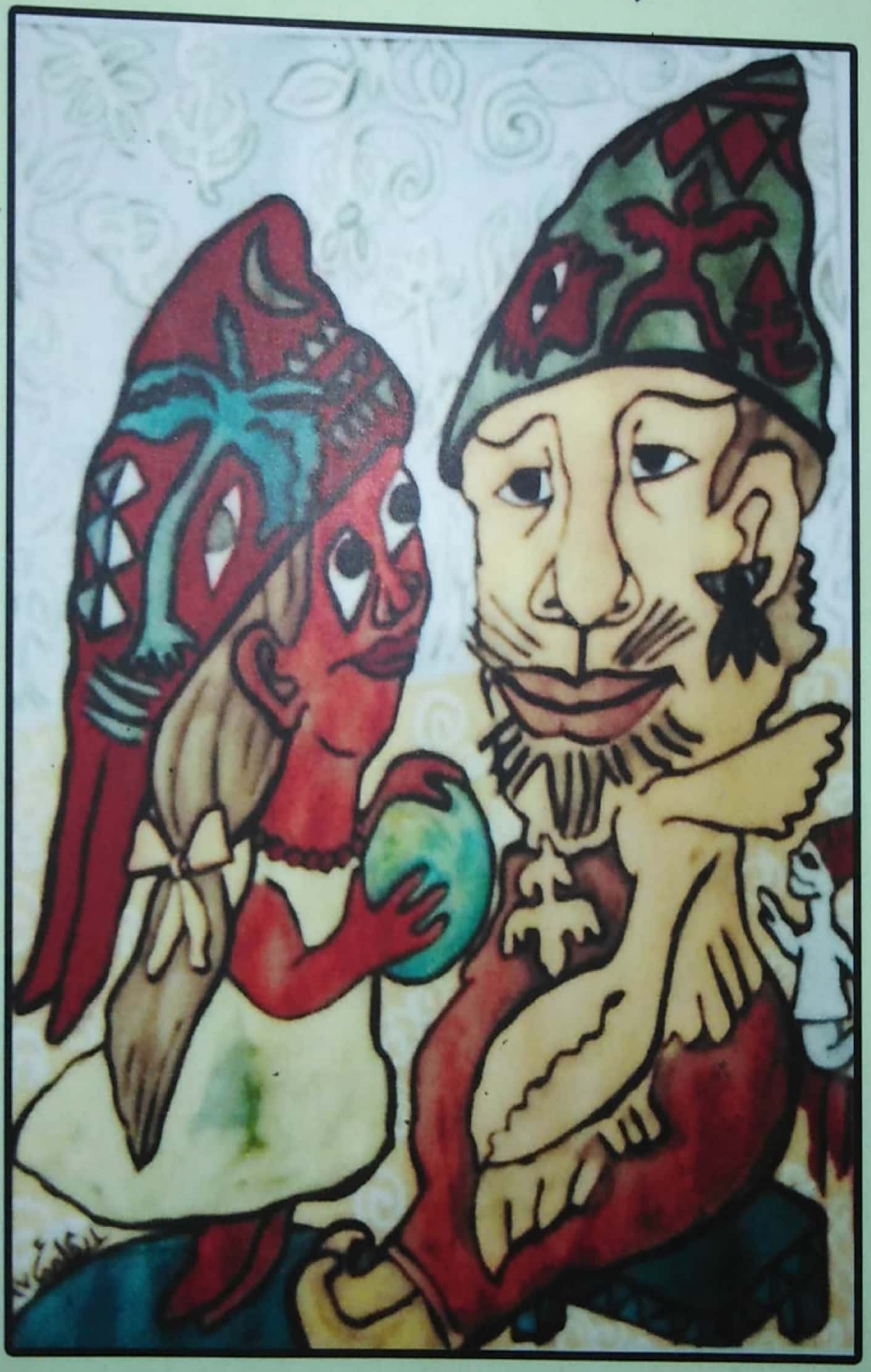

دار العين للنشر

لا شيء يحدث هنا

لا شيء يحدث هنا

وائل ياسين

الطبعة الأولى / ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

لوحة الغلاف إهداء من الفنانة الكبيرة: إيفلين عشم الله
تصميم الغلاف: عمرو عبد العزيز

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٧٥٠٩ /٢٠١٧
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 480 - 6

لا شيء يحدث هنا

رواية

وائل ياسين

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

ياسين، وائل

لا شيء يحدث هنا: رواية/ وائل ياسين.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٨

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٤٨٠ ٦

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٧٥٠٩ / ٢٠١٧

لا شيء يحدث هنا..

إذن فكل شيء يحدث هنا..

بشرط واحد..

أن تكون إجابتك..

لا شيء يحدث هنا

(الراوي الأصلي)

تصدير

لكل شيء حافة ومن الحكمة أن تراها، ومن القوة أن تنزع نفسك قبلها انتزاعًا، السقوط واقع وشيك، لا تصح معه الحيل، جاهدت لتمشي على أرض مستوية، وكم من حافة قاربت، سقطت بما يكفي لحياة واحدة، وعرفت المرة تلو الأخرى الخيبة تلو الأخرى أن القاع لا آخر له، فاحذر وانتبه، تحسس موقعًا لقدمك، فربما إن لم تفعل، وبعد قليل تنظر مشرئبًا لما كنت تظنه حقيرًا، هذا أنت وهذه الدنيا، إياك والندم.

عم سعد

في البدء كانت.. أكان ثمة بدء؟! أي كلمة تلك (البدء)؟ هل شهد أي منكم بدء شيء بحياته، بطول عمره وعرضه؟ حتى الجنين في مشيمته وبعد أن اتفق الإنسان على اعتباره بداية أتى العلم الحديث ليخبرنا عن الـDNA والصفات الموجودة به، البدء كلمة فاسدة من الجذر صدقوني، غرسها أحمق مضلل، إنما تصل الحياة ما انقطع وتقطع ما اتصل وهكذا، في صيرورة وحركة دائبة، دون بدء أو نهاية، ونحن دائمًا في وسط شيء ما، بعد البدء وقبل النهاية.

(وقت عارك حامد النوم ليصحو) -يقول الراوي- هذا الكلام ليس بالمجاز كالبدء والنهاية -فهذا راوٍ ساذج لا يُقدر اللغة وبلاغتها لذا لن أعتمده إلا مضطرًا- إنما عاركه بالفعل وقد طوح الهواء بقدميه وأمسك بخناق غطائه دون أن يعرف له أي من وي، قام منتصرًا ليبدأ يومًا جديدًا، أو هكذا ظن على الأقل، قبل أن يمسك برأسه في مسكنة بادية من أثر حشيشة أمس.

صحا يسيطر عليه خاطر غريب "فليكن يومًا لممارسة الجنون"

لم تكن الفكـــرة واضحة بعقل حامد، لكن حمل عنوانها الرئيســـي لنفسه بهجة غامضة وطمأنة نادرة، جعلته يستلقي على كنبة الصالة في ســـلام، كمن ورث خمســـين مليون جنيه -بالأمانة ليس أقل من ذلك- صحيح فكرة ســـاذجة، لكنه حلم جميل، غير مشغول بدكانه وكان قد تأخر على ميعاد الفتح ساعة أو أكثر.

في الحالات العادية، كانت نظرة منه إلى ساعة المحمول كفيلة بملء زنبلكه، فيترك عقله تحت الغطاء، ويدور بجسده من الحمام إلى غرفة النوم فالصالة حتى يعقد رباط حذائه، فيخرج إلى الشارع ويرفع الباب الصاج ويكنس الأمس ويجلس على كرسيه يراقب قهوته، ومع كل رشفة يرتد إليه شيء من عقله إلى أن ينال منه ما يكفي يومه.

أما وقد صحا مع هذا الخاطر، فقد لزم عقله في لين -ليس أجن من أن تلزم عقلك بالقطع- وقرر ألا يغادر دونه، كانت ليلى قد استيقظت بعد نوم طويل، وفي الغالب قالت كلامًا كثيرًا مفاده التبكيت ومتنه أكل العيش والاجتهاد... إلخ، بينما ظل حامد يتأملها ساهمًا "حشيشة بنت كلب شكاكة" دون أن يبرح كنبته، بعد قليل وكان قد نسي وجودها "يبدو أن مخدر الحشيش شكاك بطبعه وكلما شككت أكثر كان النوع أفضل".

وهذا الكلام يليق بحامد فعلًا، فهو من هذا النوع من الناس،

تكفيه مشاهدة أو اثنتان على الأكثر حتى يحكم على التجربة كاملة ويطلق يقينه، فهو قد يطلق أحكامًا يقينية صارمة على اشياء ليس له بها أية خبرة أو مشاهدة، فما بالك بمشاهدة أو اكثر؟ لحظة مجيء تلك الجملة بعقله كان يتمنى لو يعرف الاسم العلمي للحشيش حتى تبدو الجملة لذهنه صادقة أكثر.

في المسافة بين الشـــك واليقين، على أرض بين بحرين، تسبك الحياة مفارقتها الكبيرة، بعدد لا نهائي من التفاصيل. رجل شـــديد التبصـــر والصدق صك هذا المصطلـــح (infinity : ∞).. فيمَ كان يفكر وقت صكه؟! بينما ترجمناه إلى العربية في شاعرية آسرة (إلى ما لا نهاية) أتشـــعر بالمدا فإلى ما لا نهاية مـــن التفاصيل تصنع الحياة شـــراكها على هذه الأرض، ومن حياة تلك الشـــراك تكون المفارقة الكبرى، التي تقف أمام منطقها البســـيط مشدوهًا، كجذع شجرة في انتظار الحطاب.

تقـــف بين الإيمـــان بالنجاة أيًا كان شـــكلها والكفر بها، في تلك المساحة وعلى هذه الأرض فقط قد تدعمك الحياة.

كان حامد يسبح في أفكاره الخاصة وليذهب الوقت إلى الجحيم، لكنه متأكد أن ليلى هي الأخرى لن تذهب إلى الجحيم، الآن على الأقل. كما أن الوقت يراقب بصمت، يهزمه حامد كيفما حلا له، أما ليلى فلا تعرف الصمت.. ستواصل الكلام إلى أن يمتثل لأمرها ولو بعد سنة.

لذا تحامل على جســده، الخطوة وراء الخطوة في اتزان، كمن يحمل وعاءً على رأســه، وتكلمت ليلى بحــدة فاندلقت الأفكار من رأســه على الكنبة وبالصالة والشارع ومع الكنس وعلى كرسيه - قــد تكون تلك الأفكار التي جمعها الــرواة - إلى أن نجح في لملمة ما تبقى منها مع قهوته.

***

- وقت ما يكون الكلام عن (الحتة) ماسخ بحلقي، أنفد بجلدي وأخلع

تلا ذلك بضحك كثير، وبادله الجميع الضحك، وبدوا منشــغلين بالحكــي عن حتتهم ومرحبيــن بالحتة الجديــدة التي أضحت بلا صاحب، أو بان لها طريق ســهل، كاد يُحدث صوتًا وهو يضحك "عليهم أم على نفسك"، فقد فاجأته تلك الحتة بالتحديد أنها أنثى ولها حياة "ليتكِ ما حدثتِني عن شيء.. ليتكِ صمتِّ وفقط.. لا بل بعض الهمهمــات والآهات المكتومة كل حين قــد تفيد.. اتركيني أمارس ما أعرفه عن الرجولة كي امضي".

كان مجــدي قــد انفرد بالحديــث ولاحظ انتباه الــكل إلا مانح الحتة..

- أليس كذلك يا حامد!!

- حامد..

كانت حامد الأولى كافية ليعرف أنه خرج من كهفه إلى دوشة مجدي..

- هو كذلك.

- أقول يعني..

طبعًا حامد يعرف جيدًا ما يقوله مجدي، فقط كان يحتاج أن يعتاد صوته كي يرجع كهفه بهدوء، أما كيف صاغ مجدي ما يريد لم يكن ليشغله كثيرًا. أمنية واحدة هو متأكد من تحققها أن يسلك مجدي أطول طريق ممكن ليقول ما يعرفه حامد آنفًا.

"- أحب كلامك

- سكت الكلام والبندقية اتكلمت"

- حامد

حامد..

حامد يعرف أيضًا أن كل السبل مُزِّعت ولن يصل أبدًا إلى فهم مجدي، بل إنه حتى لا يعرف كيفية إسكاته، وكأنما خلقه الله هكذا، فاقدًا مجموعة كبيرة من الأزرار، فليست لديه أية قوائم، حتى خيار الصوت ليست به علامة سالب.

- صحيح يا مجدي.

- أعرف يا بني.

كلهم لم يقدروا على مجدي، انتصر مجدي على الجميع. وحدها الستات قادرة على هزيمته، بل طفلة صغيرة تستطيع وحدها أن تُسكت مجدي، مرة واحدة ولساعة كاملة.

حتى ناصيف لم يقدر عليه، وإن كان منشغلًا بأمر الحتة، وجل ما أزعجه من مجدي تعطيله لحامد قبل أن يستطيع استدراجه ومعرفة كل التفاصيل الممكنة عنها، لكنه آخر الأمر لم يقدر عليه.

"من أي حلم خرجتِ..

هي تلك الضحكة يا جنية.."

- هند ست.. ست.. يا خلق اللـه.

قالها حامد وكأنما حدث في الدنيا جديد، قالها بعينيه وجسـمه، قالها وكأن الحل في وصفها أن ينتج الإنسان فنًا جديدًا في التواصل، لا يمكنها اللغة بحال أن تصـف ما جال بخاطر حامد حين قالها.. ست.

وحده ناصيف عرف، بل قل قرأ، لقد قال حامد "هند"، وهذا ليس بالكلام الماسخ، إنه الوجد كل الوجد، للأمانة حاول أن يخبر مجدي أو يأخذه بعيدًا لكنه فشل. حينما حاول أن يقربه فشل وحينما

حاول أن يبعده فشل أيضًا، كلهم كلهم لم يقدروا على مجدي، وكأنما قطار يسير على ثلاثة قضبان، سيكمل مهما حدث.

فكر ناصيف: ست! قال حامد "ست" وكأن نجف هوى.. لا.. لا هذا ليس بالكلام الماسخ أبدًا. راحت هند. لم يكن ناصيف يعرف ماذا يفعل بهند أو ماذا يريد منها. فقط هو رأى ما رآه حامد. رأى الست. أحس أنه اقترب لما رأى. فما فاتته الرؤية إلا بعدًا. رأى وحلم وابتعد كلما اقترب. ضحك ناصيف كثيرًا من نفسه "والعيال أوديهم فين!!" وظن أن هذه الجملة فقط هذه الجملة قادرة على هند.

- أرأيتم تلك!!

حاول ناصيف وحاول أن يبتعد بمجدي عن هند. إلا أنه مجدي.

- هي حتة شديدة.. لكن هند بنت سومة.. كهرباء رباني.. بنت أمها بحق.

حدثت معجزة صغيرة أزاغت بصر مجدي لثوانٍ وأخذته معها، حينما رأى ما قال.

حدث حامد نفسه: "حتى مجدي يا كافرة"

- أنت تعرف لفة وسط (البت دي) تشبه من؟!

أهكذا يتكلم هذا (الباف) عن هند (البت دي)؟ أيمكن أن أتجاهل الأمـــر وفقط، كي أبدو رجلًا؟ هو أمر آخـــر أعرفه عن الرجولة. سأترك هذا (الباف) يعريها كي أرى ما لا أطيق.

"أشيء بالدنيا له قيمة.. ليس به رائحتك يا حامد"

- تشبه البنت نهى هي تنتها من قدام أعلى..

"هي تحمل اسم رجل أيضًا، الحمد للـه أني لست هذا الرجل".

ظل حامد هكذا يخرج الكلام من عقله، فيرد صوت من داخله عليه، كجذع شجرة في انتظار حطاب قد لا يأتي.

أوشك ناصيف على التقاط همس حامد، لولا أن مجدي يمشي على قضبانه الثلاثة نشطا كأن اليوم بدأ للتو.

- لكن ليست بالنمرة يا عم حامد.

هنا وقف ناصيف تقريبًا على شعر رأسه أو ما تبقى منه.

- يا خرابي هند ليست بالنمرة؟! ابحث عن علاج عاجل فحالتك متأخرة جدًا.

ضحك حامد كثيرًا

- اسمع ما أقوله.

- صحيح يا مجدي أنت صح.

"كهربـــاء بنت الكلب..آه يا بنت ســـومة لو دخلتِ فقط الدكان.. واللـــه لآكلك أكل" خرجت عينا مجدي بالكامل وهو يحدث نفســه ومد يده في الهـــواء وقبضها حتى بانت عروقـــه، وكانت معجزة أخرى ســـمحت لناصيف وحامد أن يكملا ضحكهما بسلام قبل أن يعرف مجدي.

هند قاسية جدًا، تمارس أنوثتها بقسوة، تُخرج رجلًا سكن قبره منذ زمن منك، وكأنما وُلد اليوم جائعًا للحياة. تنظر لعينيك مباشرةً، تنظر في نن عينك، تمد يدها بالهمس والكلام داخل قلبك، تحرص على أن تصل حتى الهنة البسيطة بين كلمتين داخل قلبك، بل وتطبطب عليها بيدها.

***

- أين حامد؟!

وصارت طراوة في روحه حملت لسانه في خفة.

- في البيت لكنه على وصول، قد يجيء ونحن نتكلم الآن.

حاول ناصيف كثيرًا أن يرى بعينيه أي شيء، بضاعته، محله، محل صديقه الذي تركه في عهدته.

حاول وحاول أن يذهب بعيدًا عن هذا الوهج. آه يا ناصيف، لقد

تبجحت ونظرت، ورأيت عيني هند يا مسكين. في كل مرة يتلبسه طيف منها.

- في مرة ثانية لن تراه.

وقبل أن تعطيه اللغة مفردة واحدة كاملة يرد بها. ذاب وهجها كلما خطت ناحية الشارع. تمتم لسان ناصيف بينما ظلت عيناه تتململان ذكرى اللقاء.

***

ذهب حامد بالفكر وجاء به، كل الأماكن سواء، فقط حمل مكانه معه أينما ذهب، لم يبرحه قط. الملاءة، السرير بأعمدته الخشبية، الخلخال الذهبي الرفيع وعينا هند، وتنهيدة من الروح، وراح وجاء، وباع واشترى، لكنه لم يبرح مكانه قط، كجذع شجرة والسلام.

- هند دعوة مفتوحة للجنون.

.....

من كان يخدع في تلك اللحظة؟

- أنا رجل شريف.

من كان يخدع؟ من أي قاع جاءه هذا اليقين؟ كيف انتصب مستقر الوجدان لامع العينين مصدقًا لنفسه.

- أنا رجل شريف حقًا.

إلى هذا الحد من السـذاجة يمكن أن نفكـر في لحظات ونقول فنصدق. نحن نصدق؟!

رغم لهاث الصور وعوانها برأسه، إلا أن شيئًا حدث بين ولوج الصور وقراءة عينيه لها، شيئًا عبث بالمنطق، شيئًا ما بعد حداثي ربما، أو قل قديم قدم الإنسان، استطاع التغلب على كل هذا اللحم ووهجه، أطفأه حتى اختفى.

شيء واحد لفت انتباهه للصور وتتابعها، أوضاع مختلفة لنفس اللحمة، لنفس العين، إنها هند مجددًا يا مسكين.

- أنا رجل شريف وبحبك.

عرض ظهره في مشـهد درامي، بعد أن أفلتت تلك النظرة إلى عينيه. تلك اللحظة كانت كفيله بهدم عالم كامل من الإظلام، كاد أن يصلـه بعدما أتعبه الوهج. لقد أحب كل ما تمثله تلك اللحظة، أحب لمعة عينيه ونعومة عالمه، أحس نفسـه كربّ ينظر من علٍ فيُعبد. من أجل لحظة كتلك أهب حياتي. أنا خائن شريف جدًا بالفعل. ماذا يضيـر تلك الحمقاء لو تصدق؟ لو تهبني لحظة مماثلة، لكنت الآن كامل الشرف.

بينما كان حامد يهز كتفيه ويشيح بيده ويهرب بعينيه بين لمعان

وإظلام، كانت ليلى في مواجهة ملابســها كاملة غير مشــغولة بما قاله حامد ردًا على ســؤالها الروتيني "سيقتلني الأسود، وسط كل هذه الألوان المبهجة كُتب عليّ الأسود، هل سمنت لهذا الحد؟!"

- لقد تغيرت.. هل سأعرفك اليوم!!

صديقها الشك يحرك لسانها بالرد دون جهد منها.

لم تحب ليلى لون غرفة النوم أبدًا، ظلت تحلم بها حمراء، درجة من الأحمر لم تعد تذكر أين رأتها، إلا أنها ألحت عليها في الحلم، عرفت بعد ذلك أنها ألوان كمبيوتر، ولا مكان السرير ولا التسريحة، لم تحب هذا المكان منذ وطأته قدماها أول مرة وهو خالٍ.

- لا يشبه البيوت.

قالت مقاطعة حامد وهو يشــرح لأمها بحماس عن فلســفته في التعامل مع المساحة -حامد في لحظات كتلك يأخذه التجلي- وكيف أن قطعــة فوتيــه صغيرة في هذا الركــن أو ذاك قادرة على خلق شعور بالاســترخاء، حتى لو لم يستعملها أحد، كانت صور كثيرة تخايل رأســه، ويتدافع الكلام على لســانه ناظرًا فــي كل اتجاه، يشــير إلى الســقف والحوائط مباهيًا بألوانها وما تتركه في النفس من اثر.

قالت محدثة نفسها بالأساس، لم تنتبه حتى لوجود أمها وخطيبها الغريب.

حدجتها أمها -وقد أرهقها اصطناع الحماس تعاطفًا مع حامد، على الرغم من عدم إدراكها لكلمة مما قال- بنظرة كنوبة صحيان.

- بكرة تتعودي عليها.

ليلى ضحية البحث عن الإجابـــات النموذجية، الطالبة المجدة، حضنت كتبها لاثنتي عشـــرة سنة قبل أن يتسنى لها حمل حقيبة يد، ونصف كعب، ولقب آنســـة، تحملها الســـعادة وهي تقول: "عندي محاضرة" بدلًا من "عندي حصة"، ولوقع "تفضلي يا آنسة" عليها أثر جميل، بعد أن كان "خدي يا عروسة".

- وكأني المفروض أن أخرج وأجيء بحطة إيدك وكأن الدنيا بالخارج لم تمر عليّ!

رد حامد منشـــغلًا بإزاحة قطع مكعبات، وعروسة، وإيشارب، وروب صيفي مشـــجر طالما كرهه من فوق الكنبة، وما إن استقر في جلســـته حتى ألقت الصغيرة بنفســـها عليه، وكأنمـــا ألقى الله ضحكة صافية في صدره، ضحكة عمرها سبع سنوات، حنية طالما بحث عنها خائب، ما إن يراها حتى يتبدل. تعالى ضحكهما وخَفَت ما دونه.

تروح ليلى وتجيء كأنها لا تبرح مكانها من المطبخ إلى الصالة فالبلكونة، ثم توقفت فجأة كأنما تذكرت شيئًا أمام مرآة الصالة:

- تضحك الآن.. والهم لي فقط.

نظر حامد مطولًا لمنى الصغيرة وكأنما يكلمها:

- الحسنة الوحيدة بحياتك.

فبانت منها نظرة جعلت حامد يتحرك من مكانه كي لا تصيبه

-الناس حتى الآن تقول لي تفضلي يا آنسة، كُل الأكل قدامك.

الغربة والشك هما ليلى باختصار، صحيح أنها تستعين عليهما بأحلام اليقظة، إلا أن حامدًا يفسد عليها تماسك عالمها وإقناعه لها. منذ زواجها لم تستطع ليلى الحصول على حلم يعادل هذا الكابوس، أو على الأقل يجعله محتملًا.

رحلة مهولة قطعتها بين آنسة ومدام، عرفت فيها حامد، والفستان الأبيض، وحقد الصديقـــات، ودكتور النســـاء، وغرفة العمليات، ومكاند النســـاء، ونصائح أمها، وحتة لحمة حمراء صاحبتها طوال سبع سنين، تغني لها مع وردة "إنتي المنى من غير تحديد" تتشكل أمامها فتختصر الحلم وتعيد تعريف العالم.

بينما يقف حامد على مشـــارف الأربعين، ببطن نصف مشدودة بما بقي له من الرياضة، وعين أكلها السهر بما بقي له من القراءة، وذات محيرة بين التضخم والانســـحاق بما بقي له من السياســـة، وروح ينفثهـــا في ثلاث علب ســـجائر يوميًا. يقف على مشـــارف الأربعين بكامل غضبه، وبشهية معطوبة أنهى غداءه.

- الدكان وحده.

توجه ناحية الباب والصغيرة في حضنه دون أن يلتفت لليلى، حضن اعتبره حصته من البراءة والحنية يكمل بها يومه.

- طب خد الزبالة.

- قلت مائة مرة اتركيها على الباب.

- القطط تقلبها. أراك تعد الخطى للمطبخ.

وفي الحقيقة هو يعد الخطى بالفعل على الرغم من مجانية القول، فبدلًا من خطوة واحدة بينه وبين باب الخروج، زادت الخطى ذهابًا وإيابًا إلى الباب، في مسافة ملغمة بوجود ليلى وذنب يحمله على كتفه.

وزع حامد نظراته بيـــن الصالة والطرقة والمطبخ كأنما يراها لأول مرة، مســـرعًا يرتســـم الغضب على وجهه، في الأخير ثبت عينيه على باب الخروج.

أخيرًا خرج كمن حصل على حكم بالبراءة. تلقفته شمس أمشير فزادت من إحساسه بالحرية، وشغلته به قبل أن تغيب. قطع الظل والبرد إليها، ما إن تمسه حتى تغيب، وظل طوال طريقه للدكان كلما وصلها استحالت غيمة.

وما إن رآه ناصيف من بعيد حتى علا صوته واقفًا

- استلم الخدمة.

- أعبرنا أحد؟

- السوق كله ساحبين الكراسي وقاعدين قدام دكاكينهم.

....

وقف ناصيف على أعتاب الصيد الكبير متحيرًا. عرف اقترابه بأنفه، روائح تستقبلها معدته زاجرة راعدة، حدج ماجدة بنظرة ضيق وكأنها من أنزلته

- لن أصوم إلا آخر خمسة أيام، اعملي حسابك.

- العيال كبرت ويتعلموا منك.

تعرف ماجدة ماذا تريد وكيف تصل إليه بأقصر طريق، حازمة ونشيطة، طبعت على العزم، ابنة التجار الصعيدية حتى ولو لم تطأ

قدمها أرضه، ناصيف بالنسبة إليها ليس أكثر من عطل في النظام عليها إصلاحه باستمرار أو تحييده. تجيد اختيار معاركها لذا لم تخسر واحدة من قبل.

تمتم ناصيف حانقًا وهو ينتعل حذاءه بكلام يشبه لوي الذراع والعيال، لم تفهم ماجدة ما قال واعتبرت نفسها كسبت الجولة واعتبرها ناصيف معركة مؤجلة، إلا الأكل يا ماجدة.

تابعت الست شربات ما جرى بينهما ساهدة، ماجدة على حق كعادتها، وناصيف ابنها في آخر الأمر، ومعركة تلوح في الأفق عليها أن تحدد انحيازها، تعرفين ماذا تعني له الصواني واللحمة يا ماجدة، وأعرف أنكِ مع الرب، لكن ناصيف ابن القلب، آخر الشموس وأكثرها دفئًا، لم أرَ منه حرًا قط.

عاشت الست شربات عمرًا كاملًا تحكم حوائطها كي يسكن ناصيف آمنًا، تعافر في الحاج عبد الله كما يسميه الجيران.

- يكفي السبعة قبله، الشارع سواهم بدري، وقلوبهم قست وهجوا بعيد.

- يا ولية الولد طري.. ما حصل حد واصل.. وشوفي السبعة.. شيء يرفع الرأس.

ردت تداعبه:

- يا حاج.

وسكبت ذكرى تتابع وجوههم السرار

- ليتنى أراهم، كلوا من قلبي ونكروا.

- ولأي سبب نراهم؟! أكللت بك؟

- أنت سبعة كأيام أسبوع صارت شهورًا وسنين بعمري وأنا واحد بحق العشرة والمراضية.

- بغـــل على حجرك، شـــيلتك يا عدلة، أمه والكـــورة، كأنه لم يأتِ.

صعيدي ماكر عبد اللـه أشعلها بالقلق، ظلت تردد لنفسها الكلمة الكـــورة.. الكورة، هـــدأت قليلًا حينما تذكـــرت وجهه فرحًا يملأه الوسخ والحماس.

الصعيـــدي الماكـــر خفيـــف الظل رجـــل المفارقـــات، الحاج عبد اللـه، منذ جاء من الصعيد بزوجته وسكن شارع السوق لم يرتدِ البنطلون أبدًا، ظل بلاســـته وقفطانه الصعيدي فوق جلباب بحوض واسع، وسبعة تقرب جيب الصديري، بوجه بشوش مستدير مشرب بالحمـــرة، وجيه المحيا، بدا في هيئتـــه وعمامته للعامة في بحري كعالـــم أزهري، بالرغم من تأكد أصحـــاب الدكاكين والجيران من دينه، فإن الدهشـــة كانت تأخذهم كلما مد يده ليفرد توب قماش، أو

كمشها ليرفع بؤجته على كتفه، فينحسر الكم ويبين لهم صليبه، وفي كل مرة يضحك عبد اللـه.

- إن لم تأتِ الجنة من هنا.. تأتي من هنا.. وربك رب قلوب، وهذا من أجل بولس أخي.

فتودعه الأكف هامسة على كتفه وتتعالى الضحكات

- في انتظارك يا شيخ عبد اللـه.

كان الشيخ عبد اللـه وهو صغير، ثم ما لبث أن أصبح الحاج عبد اللـه مع العمر والكبر، ولكثرة عباد اللـه ميزه البعض، الحاج عبد اللـه المسيحي.

مات عبد اللـه في صخب الشـــارع، سقطت بؤجته أولًا ثم سقط وراءها. كاد تـــوك توك أن يدهس كفه المفرودة لولا انعطافة قوية من سائقه الطفل ذي الخمسة عشر عامًا، جحظت عيناه وسلم أمره في ذهول، فلا مفر من عربة نقل الأثاث (وش في وش) ستدهســه كأن شـــيئًا لم يكن، هو وغده والتوك توك. كبح سائق النقل الخبير ذو الســتين عامًا الفرامل، ثم أطلقها وكبحها فأطلقها ثم في الأخير كبحهـــا بقوة مضطـــرًا لتفادي اصطدام وشـــيك، فعرضت العربة الكبيرة جنبها تســـد الشـــارع، ليكون آخر مشـــهد رآه الطفل سائق التوك توك لأســـرة كأنها من حلم، تجلس مستبشرة على أنتريه فخم

ومهيب بألوان زاهية، كُتب تحتها: الأســـاس في عالم الأثاث، قبل أن يغفو في إغماءة.

غيبت العربة النقل وزحمة العربات والناس المنتشرة بين خائف ومذهول ومتســـائل جســـد عبد اللـه المسجى على الأرض، انشغل بعضهم بالطفل في محاولة لجعله يســـتفيق، وآخرون حاولوا تنظيم العربات لتمكين ســـائق النقل من جادة الطريـــق مرة أخرى، بعد أن ســـدت كابينة النقل باب معرض كبير للمفروشـــات، بل كادت تدشـــدش الزجاج، وسُمع صراخ النسوان على مختلف طبقاته، من أول "أوه" حـــادة كصفارة، إلى "يا لهوي" غليظة تملأ النفوس، كل بكلمة، مَن لعن:

- حصتنا من التكاتك وقرفها والعيال التي تسوقها.

- كانت معركة حامية قســـمت البلد علـــى أثرها نصفين، كبار الســـن ومن ادعوا الحكمة منحازون للحنطور، والشباب ومن سار على هديهم أخذهم الحماس للتوك توك، ظلت طوال ســـنتين ويزيد إلى أن حسمها الأخير (أحد الرواة).

- صباح باين أليس وقف الحال بكافٍ؟

ومَن استبشر:

- حصل خير.

قاربت العشرون دقيقة، حتى انتبه الشارع إلى نفر قليل يحدقون في الأرض بذهول، وسيطرت لا حول ولا قوة إلا بالله على ما عداها، وما كاد الشارع ينتظم حتى هاج من جديد، مع اتساع الحلقة حول جسد عبد الله من تجار الدكاكين وزبائنهم وخلق الله التي تعبر الشارع، الأقرب للجسد هو الأقرب للرجل في حياته، وكلما جاء قريب قدموه، الأقرب فالأقرب، حتى صار القريب بعيدًا والبعيد قريبًا، وأخذ الناس في حزن صادق، تأكد شيخ الجامع من خروج السر الإلهي بعد ما قربته الناس لجسده، ليس لأنه قريب من عبد الله ولكن لأنه قريب من الموت وعلى معرفة به، فجل خطبه عنه.

وما إن أعلن عن الوفاة، التي عرفها الواقفون وأنكرتها قلوبهم، حتى ساد النحيب بين الرجال، وغطى الأقوياء منهم الحزن والوجوم، حمله صبيان معرض المفروشات غير مصدقين على أكتافهم كمن يحملون نعشًا، وتقدمهم شيخ الجامع قائلًا بصوت عالٍ:

- لا إله إلا الله

علا الهتاف في إثره لا إله إلا الله، وسار الحشد في مشهد مهيب انضم إليه المارة وغلقت الدكاكين أبوابها، وبدا شارع السوق خاليًا كأنه أذان الفجر، اصطفت النسوة على جانبي شارع الكورنيش المؤدي لبيت عبد الله من ناحية السوق مفسحة الطريق للمسيرة، وكلمة لا إله إلا الله تزيد الرؤوس انحناءً في ورع وابتهال.

خاطر غريب دفع شـــربات للشباك، تأملت صفحة النيل ساهمة حزينة كعادتها، حتى تهادت أصوات رتيبة إلى مســـامعها آخذة في العلو كلما اقتربت، لا إله إلا اللـه وشيخ الجامع وحاشية معه ومسيرة حاشدة، أسباب كفيلة بأن يسقط قلبها فلا تحمله قدماها، خرت على مقعدتها ســـاندة ظهرها للحائط كي لا يراها أحد، واستدعى عقلها كل المناظر الموحشـــة في التلفاز، وحكايات الصعيد للأسر تُهجر، وأطفـــال تبكي، وطوب ودبـــش من كل حدب وصـــوب تجاهها، وتنكـــرت عبد اللـه وهو يكلمها عن طيبة أولاد بحري، وظنها أنها بعيدة عن هذه المناظر، حتى وقت ما كانت تسكن الصعيد.

- جاء دورنا.

تلطم خديها وتبكي حتى انتبهت لناصيف وهو يرتعش، ممسكًا بعصا والده معقوفة الرأس لزوم الوجاهة، وعينيه تطق شررًا ذاهبًا في اتجاه الباب، حضنته كأنما تريد استرجاعه في بطنها من جديد.

- أين أنت يا عبد اللـه؟؟!! نجنا من الشرير.

وجالت بنظرها كمن بها مس

- ماذا فعلت يا عبد اللـه ؟؟!! لكن مهما عملت.

كان الصوت قد استقر وملأ هواء الصالة، والمصيبة الحقة أنها

ميزت اســمها، *يا ســت أم ناجي*، أحست شربات بعطش شديد ولم تعرف على وجه اليقين أغافية هي أم راشــدة، وناصيف اســتحال كطيف باهت توجعه عظامه، غارق في عرقه ومخنوق كأن أحذية الرومان على عنقه، ومزقت نفســه كل حكايات الآلام، *يا ســت أم ناجــي*، أنا أم ناجي حقًا، أيمكن أن يفعلوا ذلك مع أمه وهو صاحب الصيت والغنى والنفوذ؟ يعقل أن يكونوا أعداء ناجي؟ أيكون الرجل الذي خسر أمامه الانتخابات الأخيرة وحاشيته؟ أين أنت يا عبد الله؟ *يا ســت أم ناجي*، أتبلغ بهم البجاحة ليطردوني من بيت اشــتريناه عشة، وبنيناه طوبة طوبة حملها عبد الله على كتفه وخلطت إسمنتها بالعرق والدموع وماء الصبر؟ *يا ســت أم ناجي*، أي كائنات تلك، يا ست!! أي ست وأنتم تطردوني من بيتي يا كلاب.

- تنادي الكلاب اسمك، سيبيني أنزل لهم أولاد الكلب.

يتكلــم ناصيف كأنمــا لأول مرة في حياتــه، مفصصًا حروفه ضاغطًا عليها بعنف، لم تعد عظامه تحتمل ولا ســبيل للفكاك من حضنها، استحى حتى المحاولة بالرغم من هول الألم.

- يا ست أم ناجي.

هذا الصوت يحمل فاجعة من نوع آخر، لا يمكن لكل هذا الأسى والتعاطف أن يتناســب بحال مع الطــرد والتهجير، هذا بلد انتحر العقل فيه بفعل الملل بعــد ما أيس من حاجة الناس إليه، مال قلبها

مصدقًـــا للمنطق على الرغم من ذلـــك، وخفت إحكام ذراعها على ناصيف الذي راح يتنفس راجعًـــا للوراء كبالون طار من يد طفل ينفخ فيه، جمعت شـــربات عظامها، ركبتها علـــى هيئة الوقوف، واستدارت كطيف في مواجهة الشباك، ورأس مشرب بزرقة خفيفة في محاذاتها، وما إن أطلت على الحشـــد حتى تعالت الهسهسات، وميزت أصواتًا متفرقة، وكلمات غالبها المواساة، وانتقلت بعينيها بين الذقون لم ترَ في أي منها تحدي أو كراهية.

- البركة في ناصيف وإخوته.

لم يفهـــم ناصيف ماذا تعنى الكلمة في وقتها، إلا أن أســـاريره انفرجت وتهلـــل وجهه بعد أن عادت الحمرة إليـــه، فالبركة كلمة طيبة، وقد ذكر الحشد اسمه مقرونًا بها، إلا أنه أكد في تحدٍ مشيرًا بالعصا:

- نحن وطوب البيت لُحمة واحدة.. فلياتِ من ذهب عقله وأنا أرده إليه.

أخذتهم الدهشـــة لوهلة، حتى بانت ضحكـــة مكتومة على وجه صبحي السمســـار جاهدها أيما جهاد، وبات الحشد بين الهسهسات والوجوم، جال شـــيخ الجامع متفحصًا الوجوه وكأنما يســـبح، حتى خرجت ضحكة لم يســـتطع الشـــاب الواقف بجوار صبحي كتمها، وكأنما انفجرت من فمه، فحنق الشـــيخ بصدق، إلى هذا الحد تصل

الخلاعة بالشـــباب، حتى الموت! هو يعرف صبحي وصبيانه فسدة القلب.

ومن نفر إلى نفر ومن جماعة إلى جماعة، بان لشربات الحشد كسيرك، من يغادر غاضبًا تعلو الكراهية وجهه، ومن يقاوم ضحكته حتى الرغبة في الحمام.

صبيان المعرض أولاد بلد عن حق لم يكلوا بحملهم، بل ظلوا في ثبات وتؤدة، يقولون تارة.. وحنوا الله، وتارة أخرى.. مجد سيدك، في محاولة يائسة لفرد المهابة والقدسية الملائمتين لحدث بجلال موت الحاج عبد الله المسيحي.

خرجت صرخة من شربات أعادت المهابة، واتجهت الأبصار إلـــى الأرض كأنما رغبـــوا في رؤية باطنها، إلـــى أن صاح آخر الواصلين للحقيقة باسمًا:

- الله يحظك يا حاج عبد الله حي ومية.

فانفرط العقد من جديد، وانقسم وجه شربات بين دموع انهمرت، وشعر نكش، وشبه ابتسامة كادت أن تنجح في انتزاعها الذكرى، وصارت حكاية للنسوان والدكاكين، ولم تذكر قط سيرة عبد الله إلا بمصاحبة الضحكة الصافية.

بينما ناصيف ينظر في ذهول ولا يعرف بمَ عليه أن يشعر.

***

رزع ناصيف الباب وراءه، بينما ظلت ماجدة تحملق في الست شـــربات مأخوذة، وهى تراها تقبض كفها وتفردها، وتنتقل صامتة ســـاهمة بين الحزن حد البكاء، والتبســـم حد الضحك غير مدركة لوجودها، وأخذهـــا قلق صادق عليها، إلا أن تأدبها منعها من لفت انتباه الست شربات بأي حركة، وآنست إلى الصبر كصديق قديم.

فتحت الست شربات عينها ناحية ماجدة أخيرًا، وتبادلا نظرات بدت ذات معنى لفترة ليست بالقصيرة، قبل أن تنهيها ماجدة قائلة:

- أعمل لك حاجة ساخنة يا ماما؟!

فشكرتها شربات التي كادت أن تتكلم في أمر الصيام بعد أن استردت عقلها، لكنها لم تجد في نفسها الرغبة لذلك، مكتفية بإيماءة من رأسها.

أما ماجدة فتشككت في مكسبها للجولة الأولى مع ناصيف، بعد ما بدا لها من الست شربات لأول مرة في زواجها وقوفًا في جانب ناصيف.

***

مل حامد جلســـته في تلك الزاوية غير انـــه كان مضطرًا، فلا مكان آخـــر يمكّنه من رؤية دكانـــه ودكان ناصيف بوضوح وثقة

في مواجهـــة أي طارئ، كما ملت رقبته الاعوجاج يمينًا لشـــارع السوق.

أمامه الفاترينة الجانبية والباب الخلفي لمحله يسدان الأفق، عن شِماله الشارع الجانبي المقفول يحفظ ناسه وقلما يجود بعابر، ومولد من الناس وســـلامات تعلو وعلاقات تبدأ وأخـــرى تنتهي وعتاب وملاطفة وعربات وتكاتك و(حتت) تأخذ العقل قبل العين، يا خلق اللـه على الطراوة، بعد أقل من عشـــر خطوات بينه وبين شـــارع الســـوق العمومي، يراه كأنما يشـــاهد التلفاز، أحس بنفسه موجودًا وغير موجود في آن، اســـتولى عليه شعور بالضآلة لم يكن غريبًا عنـــه، فتح على روحـــه بابًا يعرف أنه لن يُغلَق بســـهولة، آخر ما يحتاج إليه مع وقفة الحال وصعوبة الرزق والأمل الشـــحيح، تذكر البغل في محطة المترو الذي مال عليه مبتســـمًا يســـأله عن مكان دورة المياه فحدجه بنظرة جاحدة ومد إليه كفًا من حجر:

- بطاقتك.

ورأى نفســـه يقف مذلولًا في غرفة متريـــن في متر، بباب من الحديد مصمت كخزانـــة، أول مرة يعرف عن وجودها في محطة العتبة، وزنزانة في ركن الغرفة تسع شخصين على الأكثر، ما إن وقعت عيناه عليها حتى استسلم في ذلة، وبغلان يعبثان بجسده بعد أن أفرغـــا جيوبه، وبغل خلف مكتب صغير، أمامه شاشـــة عنوان

صفحتها الرئيسي البحث الجنائي وخانات كثيرة، عشرة آلاف جنيه ومحفظته وسجائره والولاعة والمحمول وفواتير، وكيس بلاستيكي به مرتجعات يناكفه طوال سفره، وماضٍ ومستقبل ودكان وزوجة وبنت وأحلام هزمت وقلب على وشك التلف، ووساوس لا حد لها.

درج المكتب نصف مفتوح، ماذا لو أزاح البغل الجالس خلفه بكفه العشرة آلاف جنيه في الدرج؟ عرق أسبوعين أصل ومكسب يا بغل، بل ماذا لو أخذه نفسه بساله بفواتيره بكيسه بدنيته؟ ماذا سيفعل؟ آه من الخوف ابن الكلب، فهو بما يحمل في قلبه، وما ينوء به عقله، لا يساوي عند هذا البغل جناح بعوضة.

يد ثقيلة كقدر تهبط على كتفه

- لم حاجتك.

آه لو كل الأشياء صالحة للم يا بغل!

نزلت اليد وبانت منها السبابة تشير:

- بيت الراحة آخر الممر إلى اليسار.

تذكر دورة مياه المترو فملأت أنفه رائحتها، وكاد يقيء ما في معدته لولا أن رفع راسه حتى غاص بين منكبيه، وشت بجزعه تفاحة آدم صعودًا وهبوطًا بعدما اختتله ظل حسبه من فرط فزعه

ومن وضعه جالسًا ضخمًا، إلا أنه سرعان ما آنس الوجه المبتسم أمامه في ود، واطمأن في جلسته ضاحكًا يشاركه ناصيف القهقهة

- لم تتأخر!!

- يا عم أنت دريان بحاجة.. أنت في الملكوت.

وسأله ناصيف مداعبًا:

- أعبَرنا أحد؟

فأجابه حامد مبتسمًا:

- السوق كله ساحبين الكراسي وقاعدين قدام دكاكينهم.

جاءهم مجدي يعلوه الغضب يمشي كأنما يحفر الأرض ناثرًا الغبار:

- لا توجد في أم البلد كلها سيجارة.

ضحك ناصيف قائلًا:

- وشك مكتوب عليه.

كان مجدي أمل حامد الأخير في تأمين الليلة، بعدما منعه الحرج طلب صابع من المعلم مازورة صديق والده الراحل، وكان يعرف جيدًا أنه أمل كاذب؛ فمجدي لا يكف عن الكلام ولا يقضي شيئًا من يوم أن عرفه، وكلما عهد إليه بعمل منعته مؤامرة كونية -استفاض

في شرحها- منه، وناصيف منشغل بمتابعة أخبار مرض عمه بولس.

- في الغالب سيستلم ربك سره اليوم.

***

منذ عينته الأوقاف إمامًا لجامع السوق عرفه الناس بشوشًا مرحابًا لا يضيق بسؤال، جاء من قريته آخر الثمانينيات باحثًا عن مكان، بعد أن بيت أمر الانتقال بأسرته، فقد أرهقه السفر ومل إحساس التنقل، وهو المجبول على الاستقرار.

طرح الأرض، صنيعة أبيه الفلاح، فخر أسرته حتى كان الواحد منهم يمشي في القرية مختالًا معتدًا بنفسه، يجعر بالسلام على أي مجلس حتى لو ضم كبار البلد، وبلغ الأمر بابنه ناصر الفسل ذي العشر سنوات أن ظل راكبًا حمار جده، رافعًا رأسه بالسلام على الحاج منصور كبير البلد، فلا نزل عن الحمار إجلالًا لمقام الرجل، ولا طأطأ الرأس، لما وصل الأمر للشيخ عبد الجليل جاء بابنه وكاد يعلقه في الفلكة، لولا تدخل الحاج منصور ومدير الجمعية الزراعية.

لم يمسك الفأس في حياته، فكلما مسه صغيرًا نهره أبوه في حزم،

فاســك عقلك، وأرضك دعوة إلى اللـه، وبيتك الأزهر الشريف يا شيخ عبد الجليل. نشأ ناعم اليد حلو اللسان طيب النفس، حتى إخوته وهو صغيرهم لم ينادوه منذ ارتاد الأزهر بغير "يا شيخ" إكبارًا له.

أخــذ قرار التعيين وهــو كاره له، بيد أن فرحــة أبيه، والقيمة المضافة إلى شــخصه بعد اســتقبال قريته الخبر، جعلتا منه حدثًا عظيمًا، فابنهم لن يذهب فقط إلى المدينة -وفي مجرد النزول فخر، بل ســيكون عمله بها، ليس ذلك فقط، بل سيجلس منه أهل المدينة المتكبرون مجلس الإرشــاد والتوجيه في أمور دينهم ودنياهم، إمام أهل المدينة.. حلّ شيء من الغرور موضع الكره بنفسه، خصوصًا بعــد أن وصاه أبوه على حمل الأمانــة، والصبر في الحفاظ عليها دأبه دأب الرسل. إذن هو رسول يحمل الأمانة.. هكذا حدّث الشيخ عبد الجليل نفسه.

بــدت له المدينــة كبيرة غارقة في المفاســد، بين ســب ولعن وضحكات مستهترة، ناســها غطتهم الغفلة وغرتهم الدنيا، وجاءه طيف أبيه: إلا النساء يا ولدي.. زوّجتك صغيرًا كي تستعين عليهم باللـه، فالشــيطان امرأة، فحدّث الشيخ نفســه مبتسمًا: "من قال إن الشيطان قبيح؟ ليته يرى فيعرف".

دله أولاد الحلال -هكذا سماهم إلى حين- على صبحي السمسار، فبســمل وذكر اللـه، دافعًا بيده بابًا مــن درفتين، فرُدت إليه دُرفه،

فاستعان عليهما بجسده، نال أمر الدخول من هيبته وترتيب اللاسة على كتفه، وابتسـامته، لكنه سرعان ما استرد نفسه في ثقة، وعلا صوته بالسلام، بادله صبحي السلام بحفاوة، رافعًا كوعه من صدر امرأة بدت في عقدها الرابع ملتصقة به، أمامهما ورقة كانا منكبين عليها إبان دخوله، بدت للشـيخ كعقد، ورغم تأكد الشـيخ من نية الرجل إلا أنه دفع نفسه إلى حسن الظن، وساعده في ذلك الثقة التي قابله بها صبحي كأن شـيئًا لم يكن، فلم يحكم على الرجل أو تتغير سريرته.

يعرف صبحي الشيخ بالقطع فهو سمسار والناس رزقه، بادره قائلًا.

- نويت على الاستقرار يا مولانا.. خير ما عملت.

فكان لكلامه وقع جميل على الشـيخ، بانت النبوءة وعرفه أهل المدينة بعد أقل من سنتين، عرفه المؤمنون والعصاة.

رد الشيخ في عزة وبعربية طليقة أجاد مخارج حروفها ودقق تشكيلها، معربًا عن حلم قديم في نفسه:

- أريد بيتًا بطابق واحد، تدخله الشمس، وله فسحة أمامه، حتى إن كانت بورًا غرست ثمرها بفأسي.

أخذت الدهشـة صبحي، قد يكون الرجل ذا مال على ما به من

سذاجة، أما المرأة فضحكت مخفية فاها بكف يدها من طريقة الشيخ ولغته.

ساله صبحي ضاحكًا، وكان في حقيقة الأمر يريد الاستفهام، غير أن نيته في التحدث بالفصحى أضحكته:

- أوليست شقة يا مولانا تكون جيدة؟

- رزقني الله بمجدي منذ بضع سنين، سيصبح ابن المدينة، وأريد له أن يُربى على الأرض تطرح خيرها.

- إن كان سيكون خارج المدينة - مفسرًا- في أطرافها يعني، قل لي في الأول أتبحث عن إيجار أم ملك؟

- إيجار بعون الله.

لم تستطع المرأة السيطرة على نفسها فضحكت كأنما ترقص، أو هكذا بدا للشيخ الذي استغفر ربه في صوت مسموع، غير أن المرأة لم تلتفت إليه مشفقة على سذاجته، وخبطت على صدر صبحي بنعومة:

- آجي وقت تاني، بدّر بالشقة عشان الجيرة.

وأكملت ضحكها في تهتك، فلم يستطع الشيخ أن يدفع سوء

الظن عن رأســـه، وســـاعده مرة أخرى صبحي حينما أكلها بعينيه وهي تغادر.

- أحلى جيرة يا أم هند -ثم بنظرة ذات معنى: تحبي تكوني فوق ولا تحت؟

ثم موجهًا كلامه للشيخ وعيناه مع لحمة رجراجة في لين، حُز عليها سيران رقيقان يمين ويسار، أنارا سواد عباءتها.

- وتنوي أن تدفع كام يا مولانا؟ مفســـرًا: يعني عامل حســـابك على كام إيجار؟

فارتبك الشيخ، لم يشغله أمر المال من قبل، وفيمَ يشغله والأرض تعطـــي خيرها؟ لـــم يخطر له على بال حتى وهـــو يحزم أمره في الانتقال إلى المدينة، فجل ما شـــغل رأسه وقتها سؤال عذبه كثيرًا: أيهجر قريته حقًا؟! هذه المدينة كبيرة، مفاسدها كثيرة، تحتاج وقتي كله، والأمانة ثقيلة وعليَّ أن أتمها كاملة غير منقوصة بوقت السفر، محشـــورًا مع العامة بما ينال من هيبة الإمام، هكذا حسم الاختيار لنفسه.

ظهر في رأسه رقم خمسين جنيهًا لينقذه من وساوسه، ورآه مبلغًا يتناسب وإمامته، ويلجم تلك النظرة التي علت وجه صبحي:

- حتى خمسين جنيهًا.

قهقه صبحي حتى انثنى ظهره، تأكدت سذاجة الرجل، ولولا بصيص بقي في نفسه من تقدير للدين وأهله لزفه في السوق وفرج عليه أهل اللـه، وهذا ليس بالغريب عنه، فقصص كثيرة شغلت السوق لأيام كان أبطالها صبحي السمسار وزبائنه، مكتبه في وسط السوق وصبيانه صائدو الزبائن كثيرًا ما يأتونه بتحف على حد قوله.

عــرف أن عقل الرجل لم يغادر قريته في حياته، رغم الســفر والأزهر، وكأنمــا احتفظ به هناك تحت كومة مــن القش، فجدية الشيخ ولغته وهيئته كأنما تأتي من فيلم سينما قديم، تذكر عبد المنعم إبراهيم وهو يهُف في سكين المعلم، فدمعت عيناه من شدة الضحك وضرب كفًا بكف قائلًا:

- حتى.. حتى.. أكان ذلك كذلــك يا مولانا.. الغوث.. الغوث.. بيت.. فسحة.. شمس.. بخمسين جنيهًا يا خلق اللـه؟!!

راحت الهيبة والوقار ورفت دمعة في عين الشيخ محل البشاشة، وكأنما رجع به العمر طفلًا فبدا لنفسه صغيرًا، وهو لم يكن صغيرًا قط، وجد نفسه جالسًا على كنبة عربي بجانب المكتب كان متأففًا منها وقت دَخله ولا يعرف متى جلس، ولم يهتدِ لكلمة واحدة يرد بها على صبحي.

أما صبحي فقد هاله حال الشيخ وأحس بتعاطف عجيب معه

لم يستطع تفسيره، ومسألة التعاطف تلك كان صبحي منها براء.. "قد تكون نية الشيخ" هكذا حدّث نفسه، مشى تجاه الشيخ متأثرًا بما فعل واعتذر منه صادقًا.

- لا تزعل مني يا مولانا، أنت طيب بالفعل، شقة ناصية دور تاني في الشارع اللي ورانا على طول، بحانب الجامع، كانت أم هند ستكتب عقدها قبل دخولك.

وأخذه تحت إبطه

- عند ناس طيبين من طينتك، قم بنا أفرجك.

ثم مداعبًا:

- بالله لا تزعل.. قوم بنا -مفخمًا القاف.

***

أهكذا المال؟! يجعل من الفاسد مرشدًا ومن الإمام تائه القصد تدور به الأرض في حلقات؟ ألا يستقيم طريق في تلك المدينة الفاسدة دونه؟ درس لن ينساه وإن أقنع نفسه بغير ذلك، وبالأخص بعدما أخذ صبحي السمسار خمسين جنيهًا لإرشاده.. أي لعنة تلك؟ يرشدني لتلك الشقة العفنة مقابل خمسين جنيهًا! وأنا أرشد الناس إلى الجنة بلا ثمن؟ قبح الله وجوههم، إنه الخراب بما حاقت أيديهم.

وما من مناسبة نالت من صفوه إلا ذكرته نفسه، نُحِتَ الأمر في نفسه فما جزع، وكان عليه أن يخاف ويرتاب ويأسى، فكيف بطينة قريته الطيبة التي يقلبها الله بنوره غارسًا رسالته فيها أن تُنحَت، فما النحت إلا لصخر المدينة، ينحته الهوى وجه امرأة لا تشبع.

أتستحيل طينته صخرًا!! لعنة الله على المدينة والمال، آه يا أبي لو استبدلت عقلي بالفأس لهنئت ونمت.

شيء عجيب حقًا ما ألمّ بشيخ الجامع، أخذ من بشاشته يومًا في إثر يوم وعامًا في إثر عام، ذبل حماسه وإن كان يحدث نفسه بأنها حنكة العمر وتؤدة السن، ولم تدر له الغفلة على بال، كيف وهو من يوقظ الغافلين.

بعد صلاة العشاء بدت أنوار شارع السوق ساطعة، فما إن يخرج من باب الجامع الكبير حتى يتبدل الحال، في بعض الأحيان يضطر أن يأخذ حذاءه داخل الجامع حتى يستطيع انتعاله على مهل كعادته، فلو خرج به في موسم العيد مثلًا للبسه أمام معرض المفروشات من دفع الناس ونكزهم، وأوقات يجلس الشباب متسكعين أمام باب الجامع ووقت خروج المؤمنين يقومون من على بسطته بلكاعة وتأفف سبحان الله، أما الطامة الكبرى فتلك الأيام العجيبة التي نعيشها لا يجرؤ مؤمن على ترك حذائه أمام بيت الله أصلًا، فلو أصابت الرحمة قلب السارق يترك لك قبقابًا أو شبشبًا حال الزمن

أفضل منه، وإلا فعبور الطريق حافي القدمين إلى دكان عم سـعد، فيشكك لك حذاء حتى تأتيه بالمال من بيتك، أو يضمنك شيخ الجامع بنفسه، ورحمة اللـه أن الرجل طيب ودكانه قريب.

خرج الشيخ كدأبه مفكرًا في حال الدنيا ذاهلًا عن نفر قليل وزع نفسـه على فتارين الدكاكين، أهذا شارع السـوق؟ لو أردت الآن أن أنتعل حذائي في وسـط الشـارع لفعلت، أين عربات الحنطور وصهيـل الأحصنة، حنطـور؟! لقد نال منك الكبـر، أين التكاتك والعربات ومناوشات الباعة والتهتك؟

مشـي يروح النفس وكانت عادته بعد صلاة العشـاء، شـارع السوق حتى آخره منعطفًا على شارع الكورنيش في موازاته حتى أول السـوق من شارع الكورنيش فبيته، مربع من الفكر في أحوال الناس وحاله، أشـياء بسـيطة تلك التي تنزعه من عالمه، صبحي السمسـار وصبيانه، الحاج عبد اللـه وبشاشته التي حافظ عليها في كل مصادفة يراه، وحماسـه الذي لا يلين حاملًا بؤجته "ترى لمَ لم أره في أي صلاة؟ أيكون إمام زاوية البحر؟ أراه في محيطها دائمًا" وفي كل مرة يوشك الشيخ أن يوقفه ليسأله يمنعه الحياء، فلم يحادث الرجل من قبل.

وأم هند آه يا أم هند

- ادعي لهند يا شيخ عبد الجليل.

ما هذا الصوت يا ربي! أيمكن لأربع كلمات أن تنسيه شيوخه الغزالي وعبد الحليم محمود ومحمد عبد الرحمن بيصار وجاد الحق علي جاد الحق؟ بل تنسيه ابن الصلاح نفسه، بل من أبي الحسن الأشعري إن شئت، أربع كلمات تذهب بمئات الكتب.

- كيف حالك يا ست أم هند؟

- حالي ترق له يا مولانا، خائفة على هند.

يا سبحان الله، أي أرض تلك ما إن يمسها الماء حتى تخضع، تكاد تقلبها بيدك، تلك أرض يجرحها الفأس والله.

- ما دعوت الله إلا وذكرت هندًا وأم هند.

- كبرت والعيون تنهشها، والبنت فرحة لا تدري.

- أغيرة تلك؟

أخيرًا تعلمت مكر المدينة يا شيخ، عرفت لغة النوايا وتكلمت بها، خاطبتك بأنوثتها فخاطبت أنوثتها.

مدت يدها البضة على كتف الشيخ في حنو، ونظرت في ننن عينيه حتى قال الشيخ يا فرج الله، إلى أن قالت جادة:

- لا أريد لها غير الستر.. ستر ربنا يا مولانا.

ماذا حدث؟ لمَ انحسر البحر ولم تبقَ منه حتى شربة ماء؟

ما استفاق إلا على صوتها تنادي الحاج عبد اللـه من بعيد:

ـ جبت الأحمر لهند؟

فيجيبها الحاج عبد اللـه ببشاشة وحماس رافعًا يده بالسلام:

ـ السبت إن شاء اللـه.

وترك يده وداعًا

كان الشيخ قد نزل بعينيه لحذائه، ولم يلتفت للحاج عبد اللـه، محدثًا نفسه: ضالة أهديها يا حاج عبد اللـه، فأحسن الظن بأخيك.

وانطلقت أم هند في الكلام عن الحاج عبد اللـه وطيبته وحسن معاملته، فتذكر لت زوجته..

- ليس بنهّاش كبقية السوق، سمعت أنه أخذ دكانًا بجوار صبحي، قل للست أم مجدي تجيب منه بدل استغلال الدكاكين.

فمل الشـــيخ ولعن صبحي وعبد اللـــه وأم زفت مجدي اللعين، إنها أم ناصر وليســـت أم مجدي، تـــرى ما حال ناصر وإخوته في القرية؟ مع أعمامهم بعد رحيل جدهم يغرســـون الأرض وينامون هنيئـــي البال، إلا الزفت مجدي ابن المدينة بكل قبحها، ليته بقي مع إخوته الكبار ياخذ طيبة الأرض ويأكل خيرها، لعن اللـه المدارس والدبلومات.

وما زالت أم هند تحكي والشيخ في الملكوت يسأل ويرد على نفسه ويلعن، حتى استفاق على سؤالها:

- لمَ لا تفتح دكانًا كالحاج عبد الله، فلا رحت الخليج ورجعت بذقن ومال ولا غرفت من الفتة كالشيوخ.

هال الشيخ ما سمع،آه يا أم هند لقد ضاع العمر سدى، فلا بلغت الرسالة، ولا نلت من مال المدينة نصيبًا، آه يا أم هند أي جرح فتحتِ، الشيخ قرد جاء يفتيني بعد عمر على المنبر، جاءوا من الخليج بدين جديد أولاد الكلب.

- التجارة رزقها واسع يا مولانا وأنت رجل شيخ جامع، يعني الناس ستصدقك، والدكان يلم مجدي من الشارع.

أي بصيرة تملك تلك المرأة، آه لو كنت أفكر بتلك الطريقة، أمنت مخاوفي ببضع كلمات، بالله أكملتِ حسنك يا أم هند.

- كلم صبحي يشوف لك دكان.

لعنة الله على صبحي وصبيانه، أي قدر يمشي في ركابه، لا سبيل غيره فلا يجرؤ سمسار آخر أن يضع قدمه في السوق إلا صار عبرة، حكت الناس عنه وعمن استأجره..

- أفعل إن شاء الله.

ودعته أم هند، أما الشيخ فتلكأ بعد أن حدثته نفسه بمتعة النظر

إليها مغادرة، فاسترق نظرة وارتد بصره خشية الناس.

***

أتم الشيخ صلاة الظهر ومضى قاصدًا صبحي، وكان كلما جاءه ما يشغل باله أو يكدر صفوه يقضي ليلته في ذكر اللـه، إلى أن يقرب موعد الفجر، يخرج إلى الجامع ويدير الراديو على محطة القرآن الكريم، واضعًا الميكروفون عليه، فما أجمل النقشبندي مبتهلًا كأنما ينادي الشمس فتصحو.

يدير بكرته الكبيرة مغلقًا وقت أن يصبح الأذان وشـيكًا، يرفع الأذان بحـس جعله الوجد رقيقًا، وزاده أثر النقشـبندي في روحه عمقًا، وأخضعته حاجته إلى اللـه، ولذه سـكون قبح المدينة. ينهي إمامته للصلاة ويغيب في تسـبيح. متـى انصرف المصلون يخلو بنفسه ساندًا ظهره على المنبر، ويظل مع روحه في أخذ ورد حتى قبل الظهر يكون قد عقد عزمه، وبيّت أمره ونيته.

كان قد استفسـر عن الدكاكين ومواصفاتها وأسـعار إيجارها بصفة عامة، ثم خصص السوق ودكاكينه، حتى يسد أي ثغرة يمكن أن يصيبه صبحي من خلالها، حتى أسـعار السماسـرة وإمكانية الفصال استقصاه وعرفه.

دخل الشيخ على صبحي المكتب بنفس صقلتها المعرفة وتحدً قديم، استقبله صبحي بترحاب زائد ومودة بدت صادقة لولا غرابتها، اهلًا وسهلًا وحلت البركة يا مولانا وأحضان، والشيخ يبتسم مرتبكًا تائهًا.. ماذا حدث؟ أمكيدة تلك؟ وظل على ترحابه بالشيخ موجهًا كلامه لشاب في آخر عقده الثاني، بدا عليه الوجوم وأثقله الملل.

- بلاش أبوك، رجل فاسد وكلمتي تقف في الزور، اسمع الإمام، لا يعرف غير كتاب ربنا.

ثم موجهًا كلامه للشـــيخ وكان قد غالى في الترحيب به، ليري ابنه المـــودة والصداقة بينه وبين رجل من رجـــال اللـه.. أراد أن يضيف بُعدًا بقداســـة الدين على شخصه كأب، وخصوصًا وهو لا يـــكاد يفهم كلمة واحدة من ابنه، وكل ظنه أن الولد المفعوص يفعل ذلك عن قصد، بعد أن تعلم هذا الكلام بماله.

- قل له حاجة يا مولانا.

رد الشيخ بعد أن اطمأن لسلامة موقفه:

- أدعـــو اللـــه أن يهديه لـــك، فالولد وماله ونفســـه لأبيه. لكن ما الأمر؟

- مالـــه؟ هو عمـــره جاب مال؟ لـــف في المظاهـــرات، مرة إسكندرية ومرة مصر ومرة بورسعيد، يأخذ مصروفه يضيعه على المقاطيع.

- مظاهرات؟! واللـه لم أسمع عنها منذ عام 1977.

- عيل من صبياني دخل تمسكه الرعشة: يسأل عليك يا معلم رجل شكله مخيف، مخبر لكن ضباط المركز تعظم له، كدت أزوغ لقيته في وشي، أول مرة أشوف هذه الملة، وفي الآخر يسأل على المحروس.

- مخبر تعظم الضباط له؟!

- آه من شربين، خد بالك من ابنك، لو ثبت عليه أنه شيوعي سنجره ولن تعرف له طريق، ماشي مع فتح اللـه محروس وكمال خليل ناس تخرج من السجن فتدخله تاني، عمال كحيانة وسايبة شغلها وتشتم في البلد..

- شيوعي لعنهم اللـه.

- شوفت يا مولانا؟ وحامد أفندي ابني المتعلم ماشي يشم فيهم، مظاهرات وضربات وعمال.

- إضرابات.

- ما بيكلوش عشان مش لاقيين ياكلوا، إنت مالك؟

ظل حامد يسـمع حوار أبيه مع الشيخ في ملل، فقد كانت المرة العاشـرة التي يحكي فيها صبحي هذا الحوار لخلق اللـه، وفي كل مرة يضبط كلمة، يحفظ اسمًا، يسقط آخر، إلا أن الحوار في مجمله

مكـــرور يبعث على الزهـــق. ردَّ أول مرة بحماس على أبيه، وهو من ذكر إضرابات ونضال وفتح اللـه محروس وكمال خليل وليس المخبر، كما أن أبيه فســـر الإضراب عـــن العمل والإضراب عن الطعام والسجن كما فســـر، وكان حامد يقصد أن يعطي لأبيه بائع أي شيء وكل شيء مثلًا لأناس تدفع ثمن الحرية من حياتهم، على الرغم من بساطة عملهم وحالهم.

أما الشيخ فقد بدا عليه اهتمام ظاهر، وأحس الأمر من صميم عمله. بانت منه إيماءة زهو لصبحي ووجه كلامه لحامد:

- شيوعي؟ تقولون بقدم العالم كابن رشد وإخوان الصفا وأبدية المادة. ألم يخلق اللـه العالم؟ من خلق العالم إذن؟؟!! لعنة اللـه عليهم هذا كفر بائن، بل ومجاهرة به. لقد غررت يا فتى ولم تشفع لك عندهم حداثة سنك.

كاد حامد أن يشتبك في حوار مع الشيخ، وأن يصول في واحدة من خطبه، إلا أنه وجد المشوار بعيدًا، وهو على حداثة سنه لم يكن بالأحمق. بعد أن لمعت عينا حامد وشب صدره هدأ قائلًا لأبيه:

- أنا ماشي.

ثم التفت للشيخ بعد أن أحس حرجه:

- مرة ثانية يا مولانا.

أما صبحي فسحب كرسيه من وراء المكتب وأجلس الشيخ:

- اللـه يفتح عليك يا مولانا.

وجلس منه مجلس المريد، رأى الرجل بعين التقدير والإجلال

- اللـه يفتح عليك بنوره يا مولانا.

جلس الشـــيخ عبد الجليل مزهوًا وعلت البشاشة وجهه، بشاشة أنستها له المدينة من زمن، وأحسها بشرى وفاتحة خير لغده.

- أريد دكانًا للتجارة يا معلم صبحي.

- شاور على الدكان الذي تريده أفضيه لك يا مولانا، والإيجار كما تريد.

***

غطت الظلمة الشـــارع الجانبي. رغم كونه مسدودًا في وسطه ثم آخره لم يوصف أبدًا بالحارة أو العطفة. تكاد لا تراه وأنت تعبر شـــارع الســـوق حتى وإن وُصف لك. ظل الشيخ عبد الجليل أكثر من شـــهر يعد ســـتة دكاكين بعد خروجه من الجامع كي ينتبه له. يميـــن ثم يمين إجباري، على الرغم مـــن كون البيت خلف الجامع غير أنه لا شـــيء في تلك المدينة يمشي مستقيمًا أبدًا. حتى أم هند

فردت المدينة وثنتها على حجرها عمرًا قبل أن تسكنه، ولم تعرف بوجوده. شـــارع بجوار الجامع الكبير في وســـط السوق في وسط المدينة لا يعرفه غير سكانه. وكانت تلك الظلمة مثار تساؤلهم إلى أن ألفوا الأمر.

لمبة العمود الوحيدة لم تصمد في أحسن أحوالها عن ثلاثة أيام. في لمبة العمود المكسورة دومًا سر، خصوصًا والشيخ عبد الجليل في كل مرة يستنجد بعباد اللـه في مجلس المدينة، فيغيثونه بالعربة الكبيرة ذات السلم ويستبدلونها، وظل الأمر إلى أن مل عباد اللـه المجيء ومل هو الطلب.

صبحي طبعًا يعرف السر، فمثله لا يخفى عليه في السوق شيء، ما بالك وهو نفسه السر هذه المرة.

منذ سكنت أم هند الشارع عهد المعلم مهمة اللمبة إلى مازورة، صبيه وذراعه اليمنى وشـــريكه في التدبيـــر أحيانًا، ومازورة ابن فاســـد لأب ترزي عربي، راحت أيامه ونال الفقر من أسرته. نسبةً لرده الشـــهير كلما سُـــئل في أي أمر: "كله على المازورة" سُمي بذلك، حتى هو نسي اسمه الحقيقي.

بعد أن تضيء وتعم البشرى الشارع ويمشي الشيخ رافعًا رأسه، يأتيها مازورة في آخر الليل، ثقيل الرأس مطوح الجسد، ليصيبها من مرة واحدة، بمعدل خطأ صفر، أيًا كانت حالته.

كلما خلت سومة -كان هذا اسمها قبل أن تنجب هندًا- بصبحي بدأت كلامها باللمبة وحكايتها، من أول أخاف الظلمة، الرعب الذي يسكنها كلما دخل شخص الشارع ليلًا، الأشباح التي تراها، تحرش الطامعين بها وبهند، سينكشف ستر الحكاية آجلًا أم عاجلًا وسيعرف الناس، إلى ابحث عن حل آخر. ويرد عليها صبحي نفس الرد: من يجرؤ على التعرض لكِ أو لهند وأنا على قيد الحياة، وصبياني كحصى الشارع؟ إن الأشباح لتخافك يا سومة، من رأى غير من عرف، كل الناس تعرف كل شيء لكن أن تراه لحديث آخر. أسطوانة محفوظة.

وعلى الرغم من تكدير صفو الشـــارع الجانبي وسكانه، لم يخلُ أمر اللمبة من منفعة عامة عادت على أصحاب الدكاكين في السوق ومعتادي التردد عليه. بعد صلاة العشـــاء يغلق الشـــيخ عبد الجليل أبواب الجامع، كثيرًا مـــا كان الأمر محل كدر بينه وبين أصحاب الدكاكين، حتى حدثت حكاية اللمبة، جلسوا في دكاكينهم مطمئنين، وقت جاءهم حصر ذهبوا إلى الشارع الجانبي فكوه في ستر وأمان، بعد أن كان حصرهم يضطرهم لغلق الدكان، وعبور شارع السوق إلى شارع الكورنيش، فالنزول من الكورنيش إلى حرم البحر، وفك حصرهم في رعب من حكايات الثعابين ورؤية الفئران رأي العين، فســبحان اللـه على صبحي وحكاياتـــه، كلما أراد أن يقضي وطره

من سومة ذهب إلى الشـــارع الجانبي ككل تجار السوق كأنما يفك حصر، وما إن يدخله حتى ينطلق كسهم إليها يوتر ويتشفع.

***

مســـحة الحزن بعين سبلها ربك، وكحلتها ســـومة بتأنٍ ومحبة لوجهها بالمرآة، هي ســـر تلك المرأة. هند واقفة بقميصها الأســـود القصير ولحمتها الوضاءة تتابع أمها بشغف وهي ممسكة بالماسكارا كفنان يضع الرتوش الأخيرة للوحتـــه، تثقل أهدابًا طالما تعلق بها رجال. الماسكارا قبل رغيف الخبز، هو درس وعته هند وصاحبها طوال الرحلة.

زينب أم سومة ثم سومة أم هند ثم هند أم من يا ترى؟ عائلة من النسوان. سألت هند نفسها متعجبة: كيف جاءت تلكم النسوة إلى الدنيا أصلًا؟ أين ذهب الرجال؟ هل كانوا موجودين بالأساس؟

جاءهـــا طيف جدها منزويًا أمام البيـــت يفترش حصيرة أكلتها المصطبة، وجلباب كحال الحصيرة يســـتره بالكاد، لا يفعل شـــيئًا سوى رد السلام على الداخل والخارج والعابر، أطياف متفرقة لعم هنـــا أو خال هناك، أما طيف أبيها فاســـتحال. جاءتها أطياف كرد لم يشـــفِ حيرتها. عادت تسأل نفسها: كيف شكل عاطف يا ترى؟!

أي نوع من الرجال هو؟! أيكون كمازورة وصبيان المعلم صبحي؟! أم أستاذ بنظارة وبدلة وربطة عنق؟ أم شاب معجباني ابن بلد تهيم به البنات؟ أيكون أخيرًا رجلًا موجودًا لا طيفًا؟ أسئلة كثيرة وحيرة تتسع منذ عرفت الخبر، ساعة أو أكثر قليلًا أو أقل قليلًا وتعرف، بعد أن أيست من كل شباب المدينة بل وكبارها، وصل بها الأمر بكل فتنتها وجمالها أن قنعت بزوجة ثانية، حتى رفيقة في الظل، عرفت بكل جوارحها، وشهد كل شبر في جسدها، بأن الحب ما هو إلا طريق السرير، ما إن يصله حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة مع انثناء جسدها، ويموت بعد أن تمد أصابع يدها شديدة النعومة والرقة لسحب آخر قطعة على هذا الجسد.

كم مرة تغنجت أمها لصبحي كي يسعى في سترها! كم مرة سمعتها ونكز قلبها رد صبحي:

- بنتك لن يفكر فيها في البلد أحد، بنتك أشهر مني.

سمعت ضحكة صبحي ترج البيت، ورأت بعين قلبها سومة تقف أمامه كسيرة الروح، تسلم جسدها في خنوع.

الليلة قبل الفائتة نادتها نسمة ناعمة، داعبت ندى صدرها فخرجت الشرفة تلبيها. سمعت أمها في الشارع يجرح صوتها الظلام:

- ادعي لهند يا شيخ عبد الجليل.

صبحي على حق والشـــيخ عبد الجليل ســـره باتع، بعد أقل من يومين يأتي الخبر، وعاطف من قرية لا تذكر اســـمها. لم تهتم حتى لاسمها وحفظت اسمه من تكرار أمها:

- الست أم عاطف جاية العصر، ومعها المحروس عاطف.

تقولها سومة مرة وتغنيها الأخرى وهكذا، منذ زفت إليها الخبر صباحًا، وقت فتحت هند عينيها من النوم على ضحكة سومة تنير العالم، منذ كم سنة لم ترَ أمها وقد استحالت فرحة على قدمين؟ هل رأتها أصلًا على هذا الحال من قبل؟

أكثر من ســـاعتين أمام مرآتها تغني وتشـــحذ عدتها كاملة، من ماســـكارا لكحل لعطر آسر، ما إن انتبهت لهند ساهمة في قميصها الأسود القصير حتى تنهدت، وبضحكة ذات معنى داعبتها:

- والنبي المفروض تطلعي لعريسك كده.

***

بان الصالون بألوان زاهية على بســـاطته بعـــد أن رفعت هند غطاءه..

- واللـه كنت نسيت لونه.

قالت هند ضاحكة بعد أن تسرب الفرح إلي قلبها بالتدريج، كلما رأت وجه سومة، وكلما استحال شيء في يدها إلى أصله، من حجر البلاط، إلى الحوائط، إلى الستائر، حتى طقم أم مجدي وصينيتها الفضيين. أخرجت من دولاب سومة مفارش لم تعرف بوجودها من قبل، وكانت المفاجأة الكبرى معطرًا للهواء..

- بتلاتة جنيه خمسة وسبعين قرش!! مش خسارة في هند.

الشقة على بساطة أثاثها وصغر مساحتها بدت لنظافتها وحسن ترتيبها ولمســات أنثوية ناعمة هنا وهنــاك كركن من مكان كبير وفخم، إلا أن كل ما فات ليس بالضبط مناط روعتها، هناك شعور حميم شــديد الدفء، ما إن تخطوها بقدمك حتى يسكنك، كأن وهج جسديهما يترك شذاه في كل شبر منها.

لا هو بالأفندي ولا هو بالفلاح، متوسط الطول متناسق الجسد بعافية، كثيف الشعر، في وادٍ آخر وكأن الدنيا لم تختبره، تسبقه أمه بخطوتين، على بسطة الشقة قلبت أم عاطف سحنتها متأهبة للقاء، بينما عاطف يرمقها في ذهول..

- عشان ما يطمعوش فينا.

ردت على ابنها مســرعة حتى لا يســأل فينــال من تركيزها.

هدأت لدقيقتين أمام الباب تستحضر دور الحماة وتتأكد من حفظها نصائح الجارات، قبل أن تطرق الباب طرقًا عصبيًا عاليًا مرة، ومنخفضًا مرة أخرى. كانت سومة خلف الباب تسترق السمع لهمهمات أساورها وحفيف أقدامهما، انتظرت سومة دقيقة أو أكثر قليلًا عامدة، قبل أن تفتح الباب بابتسامة تريح القلوب، وباغتتها بالأحضان والقبلات وأهلًا وسهلًا، وكيف بالله تحتفظين بكل هذا الجمال، ونور وجهك أضاء الدنيا، ويا زين ما ربيتي، وأخذت تحتضن عاطفًا، وسحبتها من يدها برقة حتى الصالون. لم تنبس أم عاطف بكلمة واحدة، لم تتنحَ حتى لها الفرصة لذلك، فرائحة الهواء، وبشاشة سومة، وحرارة استقبالها أفسد كل خططها، حتى قلبة سحنتها قد شكت فيها، وتمنت مرآة لتؤكد لها، من صدق ترحاب سومة.

أحست سومة بتغير طرأ على عاطف بين بسطة السلم والجلوس في الصالون، تغير تعرفه جيدًا حين يصيب الرجال، احمرار بالوجه ليس خجلًا بل كأنما على وشك انفجار، ونفور في جسده، وعيناه الغائبتان عن الدنيا ركبهما عفريت.

أكون قد غاليت باحتضانه؟ سألت سومة نفسها مستنكرة ووجد القلق لنفسها سبيلًا. ثم ساخرة: ماذا سيفعل هذا الجائع حين يرى هندًا؟

لم تتمالك هند مداعبة سومة لها. ظلت تلك الشيطانة الصغيرة وراء باب حجرتها المواربة بقميصها الأسود القصير تسترق النظر لأمها وهي ترحب بأم عاطف، وما إن عبرتا إلى الصالون تخلف عنهما عاطف بخطوتين حتى كشفت نصف جسدها وهي ممسكة بالباب كأنما تهم بالخروج، نظرت في عينيه، وجرت داخل الحجرة كالمكسوفة من المفاجأة، وهكذا ضاع عاطف وأمه قبل حتى شربة ماء.

وقفت هند أمام مرآتها سعيدة كطفلة في أول المراهقة، كلما تذكرت النظرة التي اعتلت وجه عاطف انفجرت ضاحكة. أخذت تعيد تشكيل وجهها في المرآة علها تصل إلى شكل البراءة عليه، تسبل تارة، وتزم شفتيها تارة أخرى، تُرجع شعرها إلى الوراء مرة، تنزل قصة صغيرة على جبينها مرة أخرى، تزيل الكحل والماسكارا مرة، تضعهما مخففين مرة أخرى، تغير ألوان الشفاه بين الأحمر والبني والبمبي، حتى غابت في خاطر غريب، قد يكون أي من الأشكال الفائتة هو شكل البراءة، هل أعرف شكل وجه بريء حقًا؟! ظل هذا الخاطر يناكفها إلى أن أنقذتها سومة:

- اتأخرتي! حطي وشك في الأرض وقدمي الساقع، أمه الأول وبعدها عريسك.

فستانها الجديد وُشي بورود حمراء منمقة في ذوق، بدا مع رائحة الهواء كأنما يخرج الشذا منه. مشت متأنية واثقة تسبل للأرض، يد بيضاء مشـــربة بحمرة تحمل صينية فضية عليها طقم فضي يأخذ العين بلمعته، خصوصًا مع الشعر الأسود الفاحم. ذهل عاطف عن أمه وســـومة وظل يرقبها دون خجـــل كمن به مس، حتى إنه انتقل إلى الكرسي المواجه للباب كاشـــفًا الصالة. دخلت هند دون نظرة لعاطـــف على الرغم من كونه في مجال بصرها، انحنت برشـــاقة وأراحت الصينية على المفرش المذهب، سحبت كأسًا بخفة ومدت يدها لأم عاطف دون أن ترفع فيها عينيها.

أول مرة ترى أم عاطف هندًا، وكانت قد اختارتها لابنها لما رأت عليه سومة من نظافة ووسامة وجمال تصرف، قالت لنفسها إذا كانت الأم هكذا في هذه السن فما بالك بالبنت، لكنها أبدًا لم تكن تتصور أو تحلم حتى لابنها بتلك الأيقونة الماثلة أمامها في خضوع وطاعة، ظلت تتأملها حتى كادت تملس بيدها على شعر هند. جاء صوت سومة منبهًا، وقد خافت أن تمل هند دورها من طول ما مدت يدها بالكأس:

- تفضلي يا أم عاطف، عريسك يا هند.

أما عاطف فقد كان حاله حال، واضعًا كفيه أسفل حزامه غير قادر على تحريكهما كأنه مرسوم، مد كفًا بعد تفكير تاركًا الأخرى

يداري بها نتوءًا، كأنما يداعبه دون نية في ذلك. ناولته هند الكأس دون النظر إليه حتى لا يغلبها الضحك، ثم انسحبت قائلة لنفسها: استلمتك طيفا يا ابن أم عاطف.

***

عادت الكرة مرة أخرى، زينب أم سومة ثم سومة أم هند، ثم ها هي هند أم نعمة ونجوى وزينب. عاطف كحال جدها في رد السلام وإن بدت هيئتـــه كرجل حاضر. بعد أن انتهت مشـــكلتها الكبرى بموت أم عاطف، ســـحبته في يدها ليرد السلام في المدينة، فسلام القريـــة لم يكن بالنســـبة إليها أكثر من إحمـــاء، أو كزيت الموتور حتى لا تأكل تروســـه بعضها وقت انطلاقه. وهكذا عادت أم نعمة المدينة في بيت واســـع باسمها، باع من أجله عاطف فدانين كاملين من أرضه.

***

صباحات لزجة والليل يبدو كحلم بعيد. نســـمة واحدة لو معفرة ترد روحك لثوانٍ. السوق خالية إلا من التماعات غريبة على مدى الشـــوف. لا ينزل من بيته في صباح كهذا إلا المختلون وأصحاب

الدكاكين. عشـــرة أعوام أكثر من ربع عمرك قضيتها في أقل من ثلاثيـــن مترًا. نفس الـــدكان ونفس الوجوه ونفس الشـــارع ونفس الهم والانتظار. عشر ســـنين يفتحها الباب الصاج يومًا بيوم. باب الدنيا وحاله كحال الدنيا، زنبلكه الأوســـط مكسور، ثقيل في الفتح، يضطـــرك أيام لطلب من يعينك على رفعـــه. يوم في إثر يوم تفتح أقفاله في صباحات معصلجة، وفي ليالٍ كئيبة باردة، أو رائقة ذات نســـيم كتلك الليالي، تدشن أيامك بســـحبة للباب، فينزل هددًا على البلاط، معلنًا نهاية تؤكدها بقفلين، وتعيد الكرة.

أيام مكرورة بلا اســـم أو سمت، ســـبت كخميس، وحده الجمعة يقف كشاهد أو هدف، في تكراره يضحى كفاصلة بين جمل أفسدها الاســـتطراد ففقدت معناها. فقط إن كنت حيًا تشـــحذ سكينك لتترك على جسد الأيام علامات لعمرك الفائت.

ضيف في بيتك غريب عن الأهل، مضمون في مكانك، ثابت وإن تحرك الزمن، في كل الأوقات أنت في الدكان. للمفارقة أنت في قلب السوق بالرغم من كل ما فات.

الحق أقول لكم إن العظة طويلة ومملة، قاعة الكنيســـة ليس بها غير شبابيك صغيرة عالية، ومراوحها تقلب هواءً ساخنًا. أنا متأكد أن النســـيم يطوف الآن بالشـــوارع، كما أني لا أعرف قدس الله روحه بولس. عمي على العين والرأس لكن ليس لدرجة أن أحضر

العظة من أولها، فلم يكن الأمر بيننا أبدًا أكثر من صباح الخير مساء النور. العرق ونظرات الشـباب الصغير والوجوه المتطلعة كأني دخيـل، لا يريحني هذا الأمر، حتى نظرة الاسـتغراب على وجه الأب متيـاس، أنا ناصيف ابن عبد اللـه ألا تذكرني؟ ابن شـربات التي لولاها ما جئت اليوم، اختصر وحق المسيح فقد نفدت الأفكار من رأسي، أكيد أن لهذه العظة آخر.

الدكان فـي ذمة مجدي وحامد، بعـد أن عاركت الباب وحدك وفتحت، شـربت العفار وأكلـك الملل وأنت تمني نفسـك بدخان الحشيشـة ونسمات الغروب. حامد لن يسـكت في كل مرة يمنعه الحـرج ثم في آخر لحظة يقضي من المعلم مازورة، لقد اشـترى مسطرة خصيصًا من أجل تقسيم الصابع، وإن لم نقسمه سوى مرة وحيدة بـدا فيها الصابع الوافي الجميل في سـوليفانه قطعًا حقيرة تبعث على النـدم. بيد أن حامد وبكل بجاحة يختص نفسـه بنفحة المعلـم إكرامًا لأبيـه، نفحة تقارب الربع وصابـع وافٍ، ثم يقول حرج! أهذا بالوقت المناسب يا عمي!؟ ألن تنتهي تلك العظة أبدًا؟!

حامد يفرد الدبوس ويعلقه في لحظات، ومجدي لن يصبر حتى ينهي الأب متياس عظته، سيفضحنا بصوته العالي في وسط السوق، يقف على باب معرضه ويكلمك وأنت على باب دكانك كأنما لا يوجد غيرنا بالدنيا، حامد يخاف الجرسة سيسكته بأي شكل، وأنت هنا لا تجرؤ حتى أن تُخرج سيجارة. ليس أقل من سنة ترضى فيها عنك شربات مقابل هذه التثبيتة.

ترى من سيكسب في هذا المعترك؟ مازورة أم مجلس المدينة؟ أصحاب الدكاكين خاســرون في كل الأحوال، فلو انتصر مازورة اســتفحل أمر الباعة السريحة واســتقروا، وليس ببعيد أن يفرشوا بضاعتهم على بابك تستأذنهم في الدخول والخروج. أما لو انتصر مجلــس المدينة فلن يجدوا أمامهم غيرنا من رخص لتموين لصحة لأمــن صناعي لتأمينــات وهلم جرا، باب لــن يغلقه حتى الموت. إن هذا لا يرضي المســيح أبدًا، لو صحا بولس نفسه ما احتمل أن يكمــل تلك العظة، أعرف أنك رجل طيــب وتريد خيرًا، لكن هب أن واحدًا من شــعب الكنيسة يريد الذهاب إلى دورة المياه، أيجلس محصورًا؟

- .. لا تهتموا بالعالم ولا الأشياء التي بالعالم..

السوق يشغي الآن، ونسائم الأحبة في الطريق، ومجدي لا يترك تاء مربوطة تدخل الدكان إلا تحرش بها، من أول النظرة اللزجة حتى مد اليد. حامد يفرد شباكه بهدوء وكلامه تحبه النسوان، ألا تكفيك هند يا حامد؟

- ... لقد كان المتنيح إنسانًا بحق غرس الطيب.. أشكر إخوتنا المسلمين مشاركة العزاء، سلام الرب معكم امضوا بسلام.

سلام الرب معك ومع الشعب كله ومع العالم أجمع. لقد اتعظت حقًا يا أبانا.

- البقية في حياتك، ربنا يعزيك.

- شكرًا.

***

دبر الشـــيخ عبد الجليل زيارة للقريـــة، وكان هجرها منذ زمن بعيـــد. في أول الأمر كان يحضر عرسًـــا لقريـــب، مأتمًا لعزيز، وشينًا فشينًا بعدت المسافة، وندرت الزيارة مع دوران الزمن حتى انقطعـــت تمامًا.. مع ظهور المحمول ارتاح ضمير الرجل، مكالمة تفـــي بالمجاملة أو واجب العزاء. حتى ابنه ناصر أقام عرســـه في المدينة ليضمن حضوره. على خلاف الســـت أم ناصر، لا يمضي أســـبوع حتى تنزل القرية تطمئن على أولادها، وتزور دار الحاج منصور، وتصل الود مع الأهل، وتعتذر عن الشـــيخ لمشاغله في المدينة. كان الشـــيخ يرى في ذلك الكفاية وأكثر، أولاده وزوجته، الجزء الأكبر منه لا يغيب عن القرية، بقي هو ومجدي نافرين في المدينة، فمجدي منذ غادر الطفولة لم يخطُ بقدمه هناك.

لم يكن الغرض من تلك الزيارة حسب ما أعلن الشيخ تدبر مال الدكان الجديد فحسب، فما أسهل أن يستدعي ناصرًا ويطلب منه ما يريد، وناصر ابن أبيه قد شب على هيبته ومكانه في القرية، ما كان

ليرجئ له طلبًا. كانت نية الشيخ الحقيقية أن يمسك بمجدي، يحاصره في القرية بلا أصحاب أو حجج، فما أصعب أن يجلس مجدي أمامه ليكلمه حتى عن أبسط الأمور فما بالك بالتجارة والمستقبل.

مشى الشيخ في تراب القرية غريبًا. كل شيء تغير حتى بيته. مشى مسرعًا بلا سبب واضح، حتى بدت غربته من مهل ناس القرية وتأنيهم، وصل بيته وقد استحال طوابق إسمنتية بعد الطين، لولا الخضرة المحيطة والفأس لكان بيتًا في المدينة. على الرغم من مصاحبته لمجدي أخيرًا وبعد تهديد وترغيب ووعيد، فإنه ذهل عنه طوال الطريق بالحنين والذكريات ومقارنة الأحوال.

أما مجدي فبعد أن أخذ الشيخ مفتاح الشقة، وخيره بين الشارع أو الذهاب إلى القرية معهم، اختار القرية مضطرًا، فقد كان جيبه خاليًا كرأسه. مشى طوال الطريق دون كلمة وبلا أي انطباع، وبعد أن جلسا في بهو البيت تحت صورة الجد الكبيرة بين أمه وإخوته، ما إن فاتحه أبوه في التجارة والدكان وخلافه حتى مارس نزقه وحماقته كاملين، ولم يترك كلام أبيه عن كبر السن، ودنو الأجل، ورزق التجارة، ومآلها له في آخر الأمر- أي أثر في نفسه، حتى وصل الشيخ بالكلام إلى ما أراده حاسمًا:

- الأرض لمن يزرعها. نصيبك بالعدل مال التجارة أفتح به الدكان، أديره حتى يأتي الأجل وبعدها افعل ما يحلو لك. اللهم إني

قد أبرأت ذمتي منهم. اللهم بعدلك ورحمتك اعفُ عني.

***

انشغل الشيخ بتجهيز الدكان، ولم يكن قد حزم أمر نشاطه بعد، فمرة تجارة الحبوب، ومرة ملابس جاهزة، ومرة مقلة ومستلزمات السبوع، ومرة ومرة، كلما شاور في الأمر مع أهل خبرة في تجارة اقتنع بها وعزم عليها، حتى يغير غيرهم ما برأسه وهكذا، فلم يكن في الرجل ميل فطري لشيء.

في غمرة انشـــغاله ســـمع صراخًا وأصواتًا تعلو واستغاثات، بعد أقل من عشـــرين متـــرًا، عربة نقل أثاث كبيـــرة كادت تدخل معرض المفروشـــات بعد انحرافها عن الطريق، همّ الشـــيخ إليها وعبر محشـــورًا بين كابينة النقل وبـــاب المعرض، فوجد صبحي وصبيانه يطمئنون على سائقها.. أخذته لثوانٍ الألوان الزاهية على إعلان العربة، وفخامة الأثاث الذي تجلس عليه أســـرة ســـعيدة في راحة، فتذكر انشغاله الأول قائلًا لنفسه: أين ذهبت عني تلك الفكرة؟ أفتحه معرضًا للموبيليا فالســـوق على كل أنشطته يخلو من واحد، عقد نيته أن يكلم الســـائق بعـــد أن ينصرف عنه صبحي وصبيانه، وجال ببصره مستكشفًا مكانًا يلبث به لمراقبة الأمر، فإذا بحلقة من الناس حول توك توك، ما إن اقترب حتى وجد طفلًا على مشارف

الشـــباب، لم يتأكد من أمره أفاقد للوعـــي أم فقد حياته، حتى قربه النـــاس، ناوله أحدهم بصلة وآخر زجاجـــة ماء وجاءه أحدهم بماء كولونيا، ازدحمت الأشياء في يد الرجل وارتبك قليلًا من دفع الناس حتى استجمع نفسه وبدأ في إفاقته. يد تهزه وتمسك كمه طوال إفاقة الطفل حتى شـــدته شدًا، التفت الشـــيخ حانقًا وكاد أن يدفع الفاعل زاجرًا له، فما إن وقعـــت عيناه عليه حتى ميزه واحدًا من صبيان صبحي، هدأ الشيخ ونظر له مستفســـرًا، فصبيان صبحي بلطجية لا يحسبون لسن أو مكانة أو دين.

- الحق يا مولانا، الرجل مرمي على الأرض.

انطلق معه في جدية حتى وصل للرجل المسجى على الأسفلت، تشوب وجهه ابتسامة غامضة. صاح مندهشًا:

- الحاج عبد اللـه!

جس نبضه وقال آسفًا حزينًا:

- لا إله إلا اللـه، البقاء للـه.

***

لم يفهم الشيخ ما دار في جنازة عبد اللـه حتى أعلنوا العزاء في الكنيسة. انشغال عقله بالدكان وصادق حزنه على الرجل حالا

دون ذلك، وقد كان يمني النفس بحوار ولو قصير مع عبد الله، يستشف منه سر تلك البشاشة التي لا تفارقه أبدًا، حتى بعد فراق الروح للجسد. كم مرة استغفر ربه مخافة حسد تحدثه به نفسه حين يرى هذا الوجه البشوش، حتى إن حزنه جاء كرد فعل على ذلك، وكأنما يقول لنفسه أنا لا أحسده بدليل هذا الحزن. لكن لا شيء في تلك المدينة يسيء أبدًا، ما فهمه الشيخ عقد الأمر على نفسه.. أيمكن أن أحزن على مسيحي! أيستقيم حتى ذلك مع المنبر والإمامة؟ هكذا حدث الشيخ نفسه.

صحيح أن الشيخ فقد بشاشته من فترة لا يعرف حتى هو زمنها، إلا أن التجهم والغضب لم يعرفا طريقهما إلى وجهه حتى سنينه الأخيرة، آخر سنتين بالتحديد، بعدما تراكمت الأسئلة في عقله ولم تشفه إجابة واحدة. بنى داخله عالمًا من إجابات هشة سرعان ما تهاوت أمام يقين جاره وفيما بعد صديقه الشيخ وهبة.

رجل راح الخليج شابًا ورجع قبل سنتين بمال وذقن وجلباب أبيض قصير -أتباع الدين الجديد كما اعتاد الشيخ عبد الجليل أن يسميهم قبل ذلك- يوم افتتح مقلته جاءته أعداد كبيرة من الجلاليب والذقون تبارك تجارته، وظلت آيات الله تتلى من السماعات الكبيرة حتى كنت تسمعها وأنت في شارع الكورنيش، من بعد صلاة العشاء وحتى بعد منتصف الليل. رجل حاد الطبع غليظ

الملامح حازم ووافٍ على قلة كلامه، حتى صبحي بذات نفسه كان يخشاه، عرفه الناس بالشيخ وهبة.

قبل أن يفتح الشـــيخ عبد الجليل معـــرض الموبيليا بجوار مقلة وهبة كان يمقته بشدة، ليس لشخصه فلم يجمع بينهما حوار إلا مرة أو اثنتين، وكان الشـــيخ يأبى أن يمتد الحوار فيسكته بمقام الإمام. كان يمقت الشكل نفسه وما يمثله من معنى، كل من أعفى ذقنه أنزله الناس منزلة الشـــيوخ، وخاض في الدين غير واجل كأنما أرضعته أمه العلـــم، ويذهب الأزهر وآلاف الكتب ومشـــقة العلم هباءً، أي جنون هذا!

منـــذ ظهورهم في الجامع الكبير، والشـــيخ يصر على أن يغلق باب الجامع بعد انصراف المصلين عقب كل صلاة، بعدما تســـرب القلق إلى نفســـه من اجتماعات غريبة بعد صلاة العصر تارة وبين المغرب والعشـــاء تارة أخرى، ثم الطامة الكبرى وقت قدموا أحد شـــيوخهم لإمامة صلاة العصر وهو واقف بينهم، مســـتعينين على ذلك بكثرتهم وقلة المصلين، شيئًا فشيئًا لم يبقَ له إلا صلاة الجمعة وبعـــض صلوات الجهـــر، وحتى ذلك لم يعـــد مضمونًا في الأيام الأخيـــرة، لولا مواجهته للأسر كارهًا أكثر من مرة. أحس بنفســـه يتحول من إمام الجامع إلى حارســـه، فازداد مقتًا ولم يجد من يعينه على الأسر، لدرجة أن قرر فتح الدكان مقلة نكايةً في وهبة لولا أن استغفر ربه وطرد الفكرة.

للجيرة أحكام أخرى، بعد نقار ولي بوز وانصراف عن الحديث ورد السلام بمشقة، كانت الأيام كفيلة بالخلاف، أربع صلوات ذهابًا وجيئةً والنفس فُطرت على الونس، خصوصًا والشيخ وهبة مصر على كسب ودّ الشيخ عبد الجليل، حتى إن الأول استطاع أن يقنع مجدي بمساعدة والده بالمعرض وتحمل مسؤوليته رفقًا بسن الرجل وما نال عزمه، الأمر الذي ترك بنفس الشيخ عبد الجليل بالغ الأثر والتقدير. يوم أن دخل عليه مجدي ويد الشيخ وهبة الكبيرة على كتفه وعرف بنيته، كاد أن يخر ساجدًا لله شكرًا، وأدمع الفرح عينيه.

من مقت، لعداء خفي، لعداء ظاهر، لعدم ارتياح، لإحساس بالجور والندم، لقبول، لمحبة، طُوعت نفس الشيخ عبد الجليل مع إصرار جاره ولانت. في كل نقاش دار بينهما ساق الشيخ وهبة الحجة وراء الحجة في سهولة ويسر. حجة واضحة من ظاهر الكتاب غير معترف بأي تفسير وسطي، وكانت كلمته الراسخة: وسط بين من ومن؟ بين الكفر والإيمان؟ لدرجة أن الشيخ عبد الجليل مع الوقت أعفى ذقنه، وأصبح يقدم الشيخ وهبة عليه إذا سأل سائل، ويجد مشقة ما بعدها مشقة وهو يحضر لخطبة الجمعة، وفي أكثر من مرة حدثته نفسه بالاعتذار عنها.

وقت أن جاء الشيخ عبد الجليل الأجل لم يحمله ويقف على

غسله غير الشيخ وهبة. كانت جنازة مهيبة شيعه فيها شارع السوق ببالغ الأسى، ومشت فيها ذقون الدنيا، حتى هند وكانت أم نعمة في ذلك الوقت بكت الرجل بحرقة. لم تكن لتنسى فضل دعوته، وأم هند همت تغادر فراش المرض وكان قد ألمّ بها، لولا خوف هند عليها وإصرارها على البقاء، المعلم صبحي وصبيانه اشتدت بينهم وبين الذقون المنافسة في الواجب من سرادق، لرص الكراسي، لماء، لقهوة، لإكرام ضيوف العزاء من القرية. في العزاء وقف ناصر وإخوته كأقارب من درجة ثالثة، تأخذهم الدهشة والشيخ وهبة يتقدمهم لأخذ الخاطر، وقد بلل لحيته كأنما مصابه.

***

يستطيع المرء أن يميز صبحي ولو بين ألف رجل دون أن يتكلم، بهندامه الهادئ وعنايته بأدق تفاصيل مظهره، مسبسب الشعر واسع العينين دون جحوظ، لمعة حذائه الدائمة ولو غطى الطين الشارع، خاتم فضي يشي بالرجولة في إصبعه الأوسط، وسلسلة فضية تلمح انسيابها على رقبته وقت يضحك أو يستفيض في شرح أمر ما. السمسرة هي البداية الحقيقية لحياته وسبب النعمة البادية عليه.

لم تكن السمسرة في المدينة كمهنة قد استقرت بعد، مجرد

وساطة يقوم بها أي شخص وجد نفسه في موضع الوسيط بين بائع ومشترٍ، وفي أحيان كثيرة تعقد جلسات الوساطة عند كبار المدينة، كل حسب تخصصه ومهنته.

لو كان البائع والمشتري من التجار كان الوسيط في حال تعثر البيع كبيرهم أو أقدمهم في السوق وأكثرهم حكمة، وهكذا..

جلسات أشبه بالمجالس العرفية، أو إن شئت الدقة هي نوع من المجالس العرفية. يحكي عم سعد أن صبحي واحد من أبنائها المؤسسين. وقت استأجر دكانه في وسط السوق وكتب عليه "سمسار" كاد يصبح مسخرة السوق وأهله، لولا هيبته والمعيته وثقته بنفسه، أو فلنقل مثار دهشة الجميع على الأقل، أن يضع شخص لا يعرف البائع ولا المشتري نفسه موضع الوسيط، بل ويتقاضى أجرًا في سبيل ذلك بوضوح ودون خجل.

صبحي بذكائه الفطري وصل إلى مكمن القوة الحقيقي في المدينة على الرغم من حظه العسر في التعليم، المعلومات.. نعم المعلومات. كلما عرف أكثر ازداد قوة، مستغلًا موهبته وهوايته في نفس الوقت في استقصاء الأمور والحواديت، موليًا عناية خاصة بالتفاصيل وترتيبها. حتى محبته للنسوان لم تكن الشهوة فقط هي ما تحركها، إنما كونهن حكايات تمشي على الأرض، فلا شهوة تساوي عنده قصة جديدة. إذا أردت أن تعرف أي قصة من حكايات

المدينة مهما كان لأطرافها من نفوذ أو بساطة حال عليك بصبحي، وإذا أردت أن تنشر خبرًا فعليك به أيضًا.

ما إن استقرت السمسرة كمهنة حتى صار صبحي عنوانها. لم يجرؤ سمسار حتى وافت صبحي المنية أن يدخل عليه منطقته بائعًا أو مشتريًا، بينما صبحي يرتع في المدينة كيفما يحلو له.

وبعدما كان يقضي أيامًا في جمع المعلومات عن الأماكن المميزة في المدينة من أراضٍ لمحال لشقق في محاولة لإقناع من يملك رأس المال بالشراء، ومن يعوزه المال بالبيع، أصبح الجميع يأتيه حتى دكانه أو عبر صبيانه المنتشرين بطول المدينة وعرضها.

كانت عدته في أول أمره حلاوة لسانه، وقدرته على رسم مستقبل مشرق للطرفين، تغير الأمر مع ظهور الخوف، وغياب المنطق بازدحام المدينة وفوضتها، ما تبعه من تغير لنوعية صبيانه من أولاد ناس إلى أشقياء، يعرفون كيفية الصمود في فوضى الشارع. إن لم يستغنِ عن النوع الأول فله وقته.

يُحكى عنه وقت جنازة عبد الله أن نظر إلى صبيانه أمام بيت المتنيح وقال لهم هامسًا: أشكالكم الوسخة هي من أخافت الست وابنها، فلم يستطع مازورة منع نفسه من الضحك، حتى حدجه الشيخ عبد الجليل بنظرة قاسية.

لـــم يحب صبحي اللبخ، فكان كما يقولون شـــغله نظيف، إلا إذا عصلجت عليـــه بيعة، فكان يلجأ إليه فـــي أضيق الحدود وأقصى كتمان ممكن.

ولداه نادية وحامد هما نقطة ضعفه. وجرحه في سنينه الأخيرة الـــذي لم يندمل بموتـــه. بعدما ظن أنه انتقم من حظه العســـر في التعليم، فأصبـــح أبًا للدكتورة نادية، والأســـتاذ حامد كبير الكلام. فقـــدت ابنته رغبتها في الزواج، ترفـــض العريس تلو الآخر حتى جاوزت الثلاثين، كما رفضت العمل بالمستشفى تحت دعوى تجنب الاختلاط، الدكتورة رفضت العمل بالمستشـــفى! وجلست بالبيت. نغص هذا الأمر شـــيبة صبحي، حدثته نفســـه في أكثر من مناسبة أن يستنجد بالشـــيخ عبد الجليل، طالبًا دعاءه ومشورته، خصوصًا بعدما نما إلى علمه كرامته في زواج هند، إلا أنه اســـتكبر وخاف أن ينكشف سره وضعفه.

وابنه الأســـتاذ، هم آخر، مشـــى مع دراويش السياســـة تاركًا محاضراته، ومعرضا نفســـه لأن يكون رد ســـجون في أي وقت، ليس ذلك وفقط، إنما يحتقر أباه ويحتقر كل ما يمثله.

كثيرًا ما كان يقارن بين حامد ابنه الذكي، مثار فخره عمرًا حتى خـــاب، ومازورة صبيه وابنه الذي رباه في الســـوق، وصديقه في سنينه الأخيرة، على الرغم من فارق السن بينهما. كلاهما جريء،

واحد في السياسة والخيبة، والثاني في المصلحة، حامد أذكى بكثير وأصغر، أناره العلم قبل أن يأكل الدراويش والأفكار العجيبة عقله، ومازورة رغم المخـــدرات والبلاء الآخر وقـــت المصلحة يكون حاضرًا و(صاغ ســـليم).. تمنى لو اســـتطاع جمعهما في شخص واحد قبل أن ينفطر قلبه.

في ســـنين صبحي الأخيرة كان مازورة مـــن يقوم بكل العمل تقريبًـــا، مكتفيًا بتوجيهات معلمه، وبدا أن العمل يســـير على غير رغبـــة صبحي، حتى وإن لم يواجه صبيـــه. دخل مازورة في لبخ كثير، من وضع يد تحت اسم المعلم لصالحه أو لصالح الغير، حتى استمالة الصبيان لتوزيع الحشيشة.

على الرغم من علم صبحي بكل التفاصيل -فقد ظل حتى مماته يعرف دبة النملة- إلا أنه آثر الســـكوت خوفًا على هيبته من جهة، ومن جهة أخرى لم يستطع مواجهة نفسه بتلك الأعمال، خصوصًا ومازورة يودع في حساب الدكان نصف مكسبه بالتمام والكمال من كل العمل الشمال دون أن يذكر المصدر، وقت الحساب يقول: هذا نصيب الدكان من مصلحة لا تشغل بالك بها.. صبيك سداد.

خشـــي المواجهة حتى لا يُحدّثه صبيه بالمسكوت عنه ويفضحه أمام نفسه، ومازورة متأكد من علم معلمه بالأمر كله، لكن ما يحمله لـــه من محبة وفضل وعرفان جعله يفضّـــل أن يتركه نظيف اليد،

حتى لو حدثت أمور يشيل مازورة شيلته وحده.

بموت صبحي وجد حامد نفســـه أمام إرث أبيـــه وجهًا لوجه.. وقف حائرًا في منزلة بين المنزلتين، إما التطهر أو الســـقوط.. إما أن يزهد فيما احتقره عمرًا بأكمله، أو يكمل إرث أبيه محتقرًا نفسه، وكلا الأمرين مر.. وجد ماركس أمام مازورة، بينما لم يعطه غير أسئلة عصية على الحل، أعطاه الثاني محل أبيه، بل وعرض عليه المـــال ومكانة أبيه دون منازعة، الأمـــر الذي جعله يرى مازورة شخصًا آخر غير الذي عرفه. بموت أبيه واجه السؤال الذي طالما أجّله خوفًا من قســـوته: من أنا؟ ابن المعلم صبحي بائع كل شـــيء وأي شـــيء، أم من انتفضت عروقه وهو يخطب في عمال المحلة منذ يومين فقـــط؟ غير أن الإجابة كانت أقســـى مما يحتمل، فأخذ الدكان مكان أبيه، وترك مكانة أبيه وصبيانه لمازورة، وظل عمرًا واقفًا في منزلة بين المنزلتين.

***

تباينت وجهات النظر وأصبح الترقب سيد الموقف كله، معركة في الأفق لا يخطئها ناظر، شـــد وجذب بين بعض السريحة وعلي النوبي على رأس باقي موظفي الإشـــغالات، مرة في أول الســـوق ومرة في وســـطه أو آخره. بعدما كانوا يعبرون السوق غير مبالين

بالباعة الســـريحة، أو بدقة يمثلون ذلك، فتجدهم يتكلمون فيما بينهم باهتمام وجدية إبان عبورهم شـــارع الســـوق دون النظر للسريحة على جانبي الشارع، وكأن ما يشغل بالهم أمر أكثر خطورة وأهمية من ممارسة عملهم، أمر جلل وأولوية قصوى يبقى ما دونها تافهًا، حتـــى إن آخر محضر قد حُرر ضد بائع متجول مر عليه أكثر من خمس ســـنين، منذ أعلن المعلم مازورة إعلانه التاريخي الذي غيّر من شكل شارع السوق وطبيعة تجاره.

- من النهاردة الناس دي تبعي.

أعلن الســـريحة بالتالي ولاءهم غير المحدود للمعلم، بلغ الأمر ببعضهم أن أقام ما يشـــبه الدكاكين في الشارع في أرض الحكومة، أمـــام الدكاكين أو حشـــرًا بيـــن دكانين أو على مداخل الشـــوارع الجانبية، ثمانية عروق من الخشـــب يقيمون بها هيكلًا وتَرك قماش يغطيه، فيصبحون تجارًا في الســـوق هكذا! في شـــارع الحكومة. وعلـــي النوبي يقود موظفيه في جدية واهتمام بالغين دون الالتفات لذلك، مرتين كل يوم طوال خمس سنين.

يقول بعض الخبثاء إن أولئك الباعة ما هم في الأصل إلا صبيان مازورة، وهذا ما ذهب إليه ناصيف. وقال آخرون إنهم بالفعل باعة ســـريحة واستغل مازورة الأمر ووسعه بعد أن دس بينهم صبيانه، وهذا ما مال إليه حامد. أما مجدي وقد كان يرد سلام المعلم مازورة

بفخر واعتـــزاز وفرح صادق، فقال قاطعًا إن مدينة كتلك لا يصح فيها غير ما يفعله مازورة. القوة فقط هي ما يعول عليها. ساعده في تكوين هذا الرأي كونه غير متضرر من الباعة الســـريحة، فجيرته للشيخ وهبة وحماية الأخير له أمّنت مدخل دكانه.

حامد وعلى الرغم من كونه أستاذًا ويبدي الود للجميع وجل انحرافه النسوان، إلا أنه في آخر الأمر ابن المعلم صبحي، حتى إن غيّر النشاط وأصبح كأي تاجر في السوق، وشكل المخبر الذي سأل عنه صغيرًا لا يغيب عن بال مازورة أبدًا، وعلى ما يبدو عليه من طيبة به شيء يثير القلق، شيء خطير وغامض. دائمًا ما تجنب مازورة الاصطدام به مبررًا: ابن معلمي.

أمـــا ناصيف فقد كانت الكارثة تكبر أمـــام عينيه يومًا بعد يوم. صحـــا يوما من نومه على هذا الكابـــوس، وقت كان يعارك الباب الصاج لدكانه محاولًا فتحه، فوجئ بشخص غريب يساعده في رفع البـــاب دون أن يطلب منه ذلك، فلم يعر الأمر اهتمامًا، وما إن فتح وســـحب كرسيه جالسًـــا أمام دكانه حتى فوجئ بهذا الشخص يقف على ناصية الشـــارع، ممسكًا بأقل من عشر فساتين أطفال، ينادي العابريـــن ويبيع لهم.. بعد أيام أتى بكرســـي ليبيـــع عليه فقد أتعبه الوقوف، ثم طاولة خشـــبية بعد أن زادت بضاعته، ثم طاولتين ثم شمسية كبيرة وهكذا، حتى كاد يســـد مدخل الشارع الجانبي حيث

دكان ناصيـــف، بحيث بات من الصعوبـــة أن تلمح دكان ناصيف وأنت تعبر شارع السوق.

نهره ناصيف في أول الأمر، ولم يكن بباله أبدًا ما انتهى إليه، إلا أن تعاطف الناس مع البائع والمسكنة البادية عليه في البداية جعلا ناصيف يتراجع، ولما استفحل أمره بمرور الوقت بدا واقعًا، تعايش معه أسهل من تغييره.

يوم ســحب علي النوبي ورجاله عربة فول عم رمضان، وسط صراخ الأخير ودعواته عليهم، وخطبة الشــيخ وهبة عن الرحمة والعدل، بدأت الشــرارة الأولى. خرج أصحاب الدكاكين في ذهول يشاهدون الحدث، وبالرغم من مرور علي النوبي وموظفيه عليهم مرتين كل يوم لأكثر من خمس ســنين فإنهم دققوا النظر فيهم كأنما يرونهم للمرة الأولى، بدا على موظفي الإشغالات التوحش واعتلت وجوههم نظرات جائعة.

عم رمضان المســكين قضى عمرًا بالسوق قبل الباعة السريحة والفوضى، ظل محتفظًا بمــكان عربته رغم تقلب الأحوال مرات كثيرة. طبق الفول والدعوات الطيبة هو استفتاح أصحاب الدكاكين، فما هو شــكل اليوم الذي يبــدأ دون "يجعل صباحك نادي" من عم رمضان؟

تناثرت أسئلة كثيرة على ألسنة التجار: ماذا فعل عم رمضان؟ وإذا كان الموضوع إشغال الطريق، فكيف بمن يبنون دكاكين من خشب وقماش في الشارع؟ أصابهم العمى إلى هذا الحد؟ عم رمضان خارج حسبة مازورة وصبيانه، حتى موظفي المجلس يكنون من عربته وقت وجودهم بالسوق، فلمَ عم رمضان بالتحديد؟ ثم لماذا يفعل هذا العسكري عجيب الشكل ببندقيته الشبيهة بالشومة مع موظفي الإشغالات؟ والله عسكري الشطرنج ذو هيبة عنه. بين ضحك وأسى وترقب شاهد التجار ما حدث.

فهد المعلم مازورة الرسالة كاملة بشقيها، رئيس مجلس المدينة الجنين يجس النبض، وعسكري الشطرنج إشارة إلى أن صفوت باشا مأمور القسم سيقف في صف المجلس لو اشتدت الأزمة. صحيح أن العسكري التافه إشارة بعيدة من المأمور، إلا أنه إشارة في آخر الأمر عليه أن يحسب لها، مما يعني أن مازورة يملك الوقت للتفكير والمناورة، وليست المواجهة، فلو أراد صفوت باشا توجيه رسالة قوية لمازورة أو كان قد حسم موقفه في دعم مجلس المدينة، لصاحب موظفي الإشغالات أمينا شرطة على الأقل، ولسحب الموظفون بضاعة صبي من صبيانه بدلًا من عربة عم رمضان.

في الأسبوع الأول تتابعت الأحداث، ورغم اقترابها من صبيان المعلم إلا أنها لم تصلهم بعد، حتى ظن أصحاب الدكاكين في هذا الأسبوع أن علي النوبي ومجلس المدينة يخلون السوق لمازورة وصبيانه، وهو الأمر الذي أشاعه مازورة في السوق مبتدأ معركته. بعد أن منع صبيانه من بيع الترامادول والحشيش طيلة الأسبوع بحجة أن الأمن يترصدهم، مما جيّش رأي أصحاب الدكاكين لصالحه ضد الأمن، صحيح أنه لا يعول في قليل أو كثير على أصحاب الدكاكين في معركته، إلا أن تحييدهم ضرورة في معركة كتلك، واستياءهم من الأمن يصب في صالحه ويعزز مكانته على أي حال.

كان عليه أن يتحسب لدخول صفوت باشا ورجاله في أي وقت، خصوصًا بعد أن حث مازورة وجيه بك عضو مجلس الشعب على جس نبض صفوت باشا ومعرفة ما في قرارة نفسه، فجاءه بأخبار مفادها أنه عبد المأمور، ورئيس المجلس الجديد هو رئيسه المباشر، ولو أصر على خوض معركة على المأمور في نهاية الأمر دعمه مهما تلكأ في التدخل.

لم تكن مصلحة السوق وأهله بأمر ذي بال عند أيٍّ من أطراف الصراع، وهو ما يدركه جيدًا أصحاب الدكاكين وأهل السوق، إنما الفضول فقط هو ما جعل من الأمر مناط اهتمامهم، كما أنها حكاية

مليئة بالأحداث ومتجددة بتغير نتائجها يومًا بعد يوم، تلهيهم عن وقف الحال وشح الرزق.

في الوقت الذي أحكم فيه مازورة سيطرته على المدينة، وبدت الأمور كلها تجري لصالحه، ظهر أشرف باشا كامل، لواء سابق بالجيش، رئيس مجلس المدينة الجديد. تغير وجه المدينة بظهوره وقامت أنصاص كثيرة طامعة في دور أمثال علي النوبي على حسه.

حتى المأمور بعد أن تقاسم معه مازورة النفوذ ووزعا الأدوار فيما بينهما، واقتنع كل منهما بحصته، جاء أشرف باشا ليهد الدور ويبدأ اللعب من جديد. يدرك مازورة جيدًا أنها معركة كسب نقاط ولن تنتهي بالضربة القاضية وليست تكسير عظام، فلا غنى لأحدهما عن الآخر في النهاية، لكن ما أثار هواجسه هو موقف صفوت باشا، وقد بدا عليه عدم استعداده للتنازل عن شبر من حصته، مما يعني أن المعركة وبوضوح على حصة مازورة فقط.

مازورة في معركة كتلك لا يضمن إلا صبيانه؛ فأعضاء مجلس الشعب ملاعين يلعبون على كافة الأحبال، وقت الجد سينضمون إلى الموقف الرسمي أيًا كان شكله، صحيح أنهم الآن يتوسطون لصالحه لدى المأمور وأشرف باشا، محاولين ترتيب لقاء ولم الموضوع داخل الغرف المغلقة، إلا أن الأخير لو أبدى تعنتًا لن

يحركوا ساكنًا، بل قد يسارعون بإعلان الحرب عليه لو أصر أشرف باشا على خوضها، يتوسطون الآن بحجة المدافعين عن السريحة المساكين من أهل دائرتهم، وغدًا يشنون الحرب من أجل حماية رجل الشارع من بلطجة السريحة، وكله من أجل أبناء الدائرة والدفاع عن مصالحهم.

أبدى أشرف باشا استعداده للاجتماع بمازورة والمأمور، فأشرف باشا رجل قضى عمرًا في العسكرية ولا يحب التعقيدات والمسارات الكثيرة، يميل إلى الأمر المباشر في اتجاه واحد، ومقابلته لمازورة بحضور المأمور كفيلة بوضع نهاية للأمر، يأمر مازورة ويضمن المأمور تنفيذ الأمر وانتهينا، حتى إنه استهان بالأمر وقت عرف أن كل هؤلاء السريحة بمشكلاتهم وقصصهم في يد شخص واحد، كل ما عليه أن يأمره.

ما إن نما إلى علم صفوت باشا استعداد لواء الجيش لإجراء المقابلة، حتى أوعز لسكرتير المجلس بطلب حملة مكبرة من المحافظة لإزالة التعديات في شارع السوق، ليفسد تلك المقابلة قبل أن يتحدد لها يوم، ويجبر كل الأطراف على خوض الصراع، فلن يضيع تلك الفرصة أبدًا، ليبسط نفوذه في الشارع من جديد بعد أن استولى مازورة بصبيانه على جزء كبير منه، فمازورة يأتيه بالقضايا حتى مكتبه وشيئًا فشيئًا ومع مرور الوقت بدا لو أن صفوت باشا في انتظار إحسانه.

كان يفضـــل أن تبدأ المعركة وتشـــتد حتى يتدخـــل في اللحظة الأخيرة بعد الرجاء لحسمها، حســـب ما يتراءى له وقتها، إلى أن ظهرت تلك المقابلة وقد بدت له كحل وشـــيك، أو على الأقل تهدئة تفسدَ خططه.

***

في بداية الأسبوع الثاني صحا أهل السوق على مشهد عجيب.. فتح التجار دكاكينهم غير مصدقين أن هذا الشارع الواسع النظيف هو شارع السوق، حتى كان الواحد منهم لو دكانه في أول الشارع يرى على استقامة نظره حتى آخر الشارع دون عائق. لقد اكتشف التجار حديقة في وسط الشارع كان القدامى منهم قد نسوا وجودها والجـــدد لا يعرفون غيـــر كونها مكبًا للزبالـــة، يعبرون إليها عبر ممر ضيق بين بائعين، وقد اكتســـت بخضرة آسرة. مجدي وحامد وناصيف سحبوا الكراسي وتوسطوا الحديقة بين الخضرة، مراقبين دكاكينهـــم من بعيد فلا شـــيء يعوق الرؤية، تمنـــوا في صباح نادٍ كهذا صينيـــة عم رمضان، بأطباق الفول وشـــرائح البصل بالخل والليمون. صباحات متسائلة فرحة يتبادلونها فيما بينهم. هل انتهى هذا الكابوس فعلًا؟

لم تغب إجابة سؤالهم كثيرًا. لاح في الأفق صفوت باشا بذات نفسه وبزيه الرسمي يتوســـط نجومًا ونسورًا على الأكتاف، والكراكات

وعربات الأتاري (عربة الشرطة كما ألف الناس تسميتها) وعربة نقل كبيرة وتموين وصحة، مولد وصاحبه المأمور. أشـــرف باشا كمال بنفســـه يتقدم المولد في أول ظهور له في الشارع، وقد رأى الرجل أن الموكب مناســـب لظهوره الأول. فـــي دقائق قليلة كان التجار قد غُلقت دكاكينهم واقفين أمامها في ترقب للحدث.

عبرت الحملة المكبرة شـــارع الســـوق ذهابًـــا وبعد جولة في المدينة إيابًا ورجعت خائبة، العربة النقل الكبيرة المصاحبة لها كان صندوقهـــا خاليًا تمامًا في عودتها كما في مجيئها، بقدر ما أثار هذا الأمر اســـتياء صفوت باشا وحنقه، بقدر ما أسعد أشرف باشا الذي بدا أمام المحافظة وقد بسط سيطرته على المدينة في أسبوع واحد، بدليل شارع السوق ونظافته التي لم يكن يحلم بمثلها، بعدما تراكمت الشكوى تلو الأخرى بمكتب شكاوى المحافظة عن إشغال الطريق والفوضى التي يثيرها السريحة، والبلطجة، وبيع الممنوعات. وزاد تقديـــره لمازورة خصوصًا بعدما رأى براميل ســـوداء ثُبتت على جانبيّ الطريق لجمع القمامة مع تحيات المعلم مازورة للسمســـرة وتجارة العقارات.

- لم تنسَ النسور والنجوم أن تضع نذورها في الصندوق الأسود الكبير "تبرعوا لبناء جامع" أمام مقلة الشـــيخ وهبة، بعدما ضرب لهم أشـــرف باشـــا المثل الأعلى واضعًا ورقة بمائة جنيه واضحة

وضوح الشـــمس. تكاد الخشية من اللـه أن تفتك بهم لحظة عبورهم علـــى الصندوق واللـه، حتى إن رأيت المشـــهد مـــن بعيد وجدتهم يتزاحمون على الصندوق في استباق الثواب.

كان خبر الحملـــة قد وصل المعلم مازورة في الليلة الســـابقة، فالحملة تتحرك من مدينة لمدينة، وأعدادها كبيرة، وصبيان المعلم في كل مكان يسدون عين الشمس، من المستحيل تقريبًا أن تتحرك ســـرًا، وبالأخص على المعلم مازورة، جمع صبيانه فجرًا فأزالوا العروق الخشـــبية والقماش وكل التعديات عن الشارع. لقد جعلهم يكنسون الشارع بعد رشه بالماء، وجاء من بناياته المختلفة ببراميل تخزين المياه لزوم البناء والتشـــطيب فدهنها، وكتب عليها اســـمه، وثبتها على جانبيّ الطريق، في رسالة منه للمأمور.

في أقل من ســـاعة بعد أن غادرت الحملة المدينة رجع شـــارع السوق إلى أصله، نُصبت العروق الخشبية وغُطيت بالقماش ورجع كل بائع مكانه كأنما لم يغادره من قبل، وكأن ما رآه التجار صباحًا مجرد وهم جمعي سيطر عليهم، أو حلم يقظة وُزع عليهم في نفس الوقت، لدرجة أن حامدًا نظر في اتجاه ما كانت حديقة قبل ســـاعة متســـائلًا: ألم نكن جالسين فيما يشـــبه الحديقة منذ قليل؟ انتبه على عيـــن تحدق به في اتجاه نظره وكانتـــا لصبى من صبيان مازورة يقف على فرشِه، فتبادلا نظرات ذات معنى في صمت.

ليلتها نزل السوق صنف صكه المعلم بنفسه باسم "بكره تعرف" على اسم غنوة فايزة أحمد الشهيرة، وأمر صبيانه بربع صابع محبة لكل شارٍ وبيع الترامادول بنصف سعره، وقضى التجار ليلتهم في ضحك هيستيري صنعته المفارقة بين حلم الصباح، وواقع بعد العصر، وسطلة الليل، وكلما سأل أحد منهم الآخر عن أي شيء، رد عليه مقهقهًا: "بكره تعرف".

***

ظلت الأحداث بين كر وفر وكل أسبوع بحكاية، شارع السوق يُهَد ويُبنَى في الأسبوع مرة أو اثنتين مع كل حملة، والشيخ وهبة يتابع الأحداث عن كثب ويجمع مشاهدات الذقون التي ملأت الشارع، بعد سيطرتهم على الجامع الكبير وانتشار دكاكينهم بأموال الخليج، يستقصي أدق التفاصيل ويرتب الأحداث بناءً عليها، وكان قد همّ بالمشاركة في البداية ورأى في عم رمضان فرصة مناسبة للتدخل، فانبرى يخطب في وسط الشارع بصوت بحته الحماة طالبًا الرحمة من رب العباد، ومستحثًا الناس للوقوف ضد الظلم، غير أنه لم يوجه خطابه لأحد، بدا وكأنه يكلم الله بصوتٍ عالٍ في وسط الشارع، وعرض جمهوره من الذقون وجوههم متفرقين في مشهد باهت، مكتفين بضرب الأكف، ولا حول ولا قوة إلا بالله هامسة كمصمصة شفاه.. بدا ظهورهم غير مرتب على غير العادة كأنما فاجاهم الموقف فارتجلوا، رغم تداركهم الأمر فيما بعد.

فعلى حد قول مجدي لم يقف شـــخص أمام الظلم ســـوى الشيخ وهبة أكرمه اللـه. بعد يومين أو ثلاثة بدا موقف الشيخ وهبة كما قال مجدي. على أي حال تراجع الشـــيخ وهبة وجمهوره عن المشاركة فـــي الأحداث مكتفيًا بجمع المعلومات ومحاولًا فهم ما يجري بدقة، ولم تكن اجتماعاتهم في الجامع بغريبة، فقد ألفها الســـوق منذ فترة ليســـت قصيرة حتى اجتذبت بعض التجار وأهل الســـوق فشاركوا فيها منتظمين أو على فتـــرات متقطعة، رغم ما بدا عليهم من قلق وما ارتسم على وجوههم من عزم غامض.

اســـتفاد الشـــيخ وهبة وجمهوره من الباعة السريحة والفوضى الحادثة، فخرج كل واحد منهم ببضاعته حتى منتصف الشارع أمام دكانه تحت زعم الحفاظ على مداخل دكاكينهم من السريحة، أو كما يقولون: "جحا أولى بلحم طوره".

لم يصطدم بهم مازورة وصبيانه أبدًا، ليس لأنهم شيوخ ورجال دين وكل هذا، فمازورة على عكس معلمه لا يقيم وزنًا لتلك الأمور، بل على العكس يمقتها بشدة ولا يفرق بين ذقن أو كاكولة، هو فقط رأى الأمر في بساطته، وهبة معلم وحوله صبيانه، يقومون بالتنفيذ إن نفذ ويقعدون إن قعد، صبيان مخلصون سبب كافٍ لقلقه.

ومعركة الانتخابات الأخيرة ليســـت ببعيدة، انتصر فيها بشـــق الأنفس بعـــد دعم المأمـــور، وعربات الأمن المركزي، وبســـالة

صبيانه كافة. استخدم فيها كل أسلحته من الإرهاب بالبندقية متعددة الطلقات، إلى الخرطوش، إلى كسر البلاط والدبش، بدت المعركة في أوقات كأنما لن تنتهـــي أبدًا؛ فخصومه تتدفق في دفعات ما إن ينتهي من واحدة حتى تظهر الأخرى، بدوا له جميعًا نفس الشـــكل حتى اختلط عليه الأمر: أتلك دفعة جديدة أم من كســـرتهم منذ قليل؟ صحيح لم تكن ذقونهم كبيرة كالشـــيخ وهبـــة وصبيانه، كانت إما حليقـــة أو تم تهذيبها، إلا أن كلامهم يكاد يتطابق. بعد معركة دامت لأكثر من عشـــر ســـاعات مل فيها مازورة العراك، لم يستطع أن يخرج من اللجان بأكثر من عشـــرين صندوقًا، حافظ بها على ماء وجهه، وكانت كافية على أي حال لنجاح هذا (البأف) الذي قد يبيعه عند أول منعطف.

***

مجـــدي قد خرج أيضًا ببضاعتـــه، طاولتين صغيرتين وبعض الكراسي إلى منتصف الشارع بعد نصح الشيخ وهبة له، وهو أمر كرهه مجدي حقًا؛ فلم يكن ذا عزم في عمله، يكفيه أن يصحو ويفتح معرضـــه، ويناكف خلق اللـه طوال اليوم، حتـــى يأتي الليل فيقفل الباب الصاج راجعًا بيته، يناكف زوجته حتى تبكي وتنام في غم.

لولا سمعة تركها أبيه، وزبائن يأتي بهم الشيخ وهبة، ما باع

ولا اشترى. أخذه الكسل في البداية، يوم يُخرج بضاعته ويومان يترك المكان أمام دكانه خاليًا، حتى لاحظ أن البائع المستقر بجانبه يجور على المكان شبرًا بشبر ويومًا بيوم، فاضطر إلى فعل ذلك يوميًا، وجاء بكسر حائط مهدم وطوب كبير ودبش ورصه على حدود دكانه، فبدا المكان كساحة لعراك آفل. ضيق عقله وقلة حيلته جعلاه ينفجر غاضبًا لأتفه الأسباب، أو يقوم بجهد كبير في عزم وغضب ليرد على مسألة في غاية البساطة.

يوم كان مع حامد وناصيف في الحديقة تحمله السعادة، لا لشيء سوى كونه لن يُخرج بضاعته من المعرض ويُدخلها كل يوم، ضحك يومها مع ناصيف بقلب صافٍ ونسي حكاية أنه مسيحي تمامًا، بعد أن كان يتجنبه في الشهور الأخيرة يومًا بعد يوم، ويتسلل للجلوس مع حامد كلما غادره ناصيف، ووقت يجيء يتحجج مغادرًا بأي سبب، وإن اضطرته الظروف لخوض نقاش معه في شارع السوق، أبدى العابرون في شارع الكورنيش رأيهم فيه.

بعد أن غادرت الحملة المكبرة، ورجع شـــارع السوق كما كان، دخـــل مجدي دكان حامد وكان الأخير منزويًا في ركن المحل يفرد دبوس الحشـــيش ويعد العـــدة، لم يره مجدي فســـأل ناصيف عنه بوجوم، فأشار ناصيف لمكان حامد بلا اهتمام، ومرت بينهم الدقائق ثقيلة، حتى نشـــف حامـــد الكوب الزجاج جيدًا مـــن اي اثر لماء،

وعلق الدبوس بوسط السيجارة بعد أن كسر طرفها، مراعيًا مقاس استدارة الكوب، وحشرها برأسه بعد أن أشعل الدبوس، وأحكم إغلاق الكوب، انتظر ثوانٍ بدت بعيدة بفعل اللهفة حتى امتلأ الكوب بدخان الحشيش، مال برأسه موازيًا غطاءه في حرص، استنشق في أنفه الدخان بقوة دفقة واحدة، وكتمه على ثلاث مرات محدثًا صوتًا كالتمخض، ثم رفع رأسه بوجد إليهم، وغاب في ضحكة لرؤية الوجوه المتطلعة إليه في شوق، لم تعنه على القيام من مكانه، فحاول مرة أخرى تاركًا مكانه لناصيف ثم مجدي وظلوا في تبادل، كلٌ بدوره حتى انتهى الدبوس.

في المرات الأخيرة كان مجدي يغادر مسرعًا وقت انتهى الأمر، حتى السيجارة التي علق بها الدبوس لم يعد يصارع عليها كعادته، غير أن حامدًا في تلك المرة قرر أن يستبقيه وقد لاحظ ما بينه وبين ناصيف من توتر وفتور يصيبان حامدًا كلما جمعتهم الظروف بارتباك يعجز معه عن التصرف.. قرر أن يزيح هذا العبء في لحظة وجدها مناسبة، وجد روحه رائقة شفافة ورأى الصدق سهلًا وبسيطًا، اندهش من كل الأسرار التافهة التي ملأت عليه عقله ونغصت حياته بلا معنى، لحظة للبوح كأنما أذاب الدخان الأبيض في طريقه كل أقفال روحه.

لحق مجدي بالكلام وقت كان الأخير على باب الدكان مغادرًا:

- بسرعة، أحسن الشيخ وهبة يضربك لو تأخرت.

اندفع مجدي إلى الرد، رغم تأكده من نية حامد، إلا أنه لم يستطع السيطرة على نفسه:

- الشيخ وهبة رجل طيب، يراعي المعرض وأنا أعصي الله، أتأخر عليه أيضًا!!

كاد حامد أن يخوض مناقشة جادة مع مجدي حول عصيان الله بعد أن انتهى من الشـــرب، ولمَ جاء لو لم يرد أن يعصي الله، بل لـــمَ اقتطع من ماله في أول الأمر وتشـــارك معهما ثمنه، ولمَ ينظر مجدي لناصيف وهو يتكلم، ناصيف عنده الله أيضًا يا أحمق، غير أنه عـــدل عما جال بخاطره مفضلًا مزيدًا من اســـتفزازه بدلًا من تغيير الموضوع.

- كل رجل يخاف زوجته، وانت لا تخاف إلا من الشيخ وهبة.

ملك الغضب مجدي وتحرك بعنف داخلًا إلى الدكان. أجفل منه حامد لوهلة غير انه أصر أن يكمل ما بدأه، ثم حاول تهدئة مجدي قائلًا:

- كل ما هنالك أني أشفق عليك، أنت تفني روحك، إما أن تذهب إلى اجتماعات الشيخ وهبة في الجامع الكبير، أو تأتي إلينا رائقًا، احسم أمرك وارحم نفسك وارحمنا من عفارك.

مجدي وقد دخل إلى الدكان وفي نيته ألا يبقى، مع ثقل وجود ناصيف على نفسه، بكل ما يحمله له من محبة وكره في آن، واستفزاز حامد له، وصل إلى حالة غريبة من الاضطراب والتوتر، فاقشعر بدنه وانفجر في ناصيف بكلمتين:

- أنت تكرهني.

وخطا مسرعًا خارج الدكان كأنما يهرب من كلب يخافه. وعلى ما في الكلام من وجع أصاب ثلاثتهم، وما في الموقف من دراما مربكة، إلا أن ناصيف وحامد انطلقا مقهقهين، وقال ناصيف بين القهقهة:

- ما الذي حدث الآن؟ أنا لم أكلمه أصلا!!

فرد حامد بعين أدمعها الضحك:

- بكره تعرف.

***

ألقى مجدي السلام على الشيخ وهبة في عجالة، زاغ ببصره عن عين الشيخ المحدقة به خوفًا من انكشاف أمره، ودخل معرضه بخطى متخبطة. صوت قهقهة ناصيف وحامد إبان مغادرته لهما ما زال يدوي في أذنيه. صور له خياله وجهيهما بشكل هيستيري،

يخرجان لسانيهما له، فظل يطارد بيده الهواء حتى جلس منهكًا على كرسي فخم، أفضل وأغلى قطعة عنده بالمعرض، وكان يوليه عناية خاصة ولا يطيق أن يمسه الغبار، ولو قرأ في عين زبون نية الجلوس عليه نهره بشدة، حتى هو لم يكن ليجلس عليه لو كان في حالته الطبيعية، وما إن جلس عليه حتى ارتدت له ذاته كما يراها، عظيم، قوي، يعرف كل ما يدبر له الحاقدون في الخفاء، يفهم كل شيء، من نظرة واحدة يكشف النوايا ويفسد المؤامرات.

حقًا كان مجدي يرى نفسه في مكان آخر، وسط أناس آخرين، يعد نفسه دائمًا بعمل عظيم غامض، يكشف للكل عن حقيقته كما يراها، ويقضي الساعات متخيلا الدهشة تعتلي الوجوه غير مصدقين أنه هو.. هو من قام بهذا العمل العظيم، يأكل الندم أرواحهم على ما اقترفته أيديهم بحقه. لكنه سيسامح الجميع ويوزع عليهم نبله بابتسامة من القلب.

يتخيل نفسه بكرسيه أمام مذيعة جميلة، تنظر إليه بانبهار بعدما اخترع شيئًا يغيّر الدنيا ويعيد كتابة التاريخ، حتى إنه كان يفاضل بين المذيعات أيهن يختار، ويدقق النظر بضيوفهن متسائلًا: ترى بدل من سيكون؟ مرة أحمد زويل، ومرة مجدي يعقوب "لا.. لا.. مسيحي" في مرة قريبة بعد بطولة 2008 تخيل نفسه حسن شحاتة، وهو لا يحب الكرة ولا يفقه شيئًا فيها على الإطلاق، هذا الأخير

بالتحديد كان مسار مناكدات لا تنتهي مع ناصيف، فناصيف يتنفس الكـرة وهو لا يعرف عنها غير اسـتدارتها، ومع ذلك يصر على تحليل المباراة وتقييم اللاعبين ووضع التشكيل المثالي، مستثنيًا أبو تريكة لأنه لاعب فاشل. فيضرب ناصيف كفًا بكف صائحًا:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله يا أخي، خرجتني من الملة كي تستريح.

مرة يجيء برقبة المعلم مازورة أسـفل حذائه وسـط استرحام المعلم وصبيانه له بالعفو، ومرة يجلس منه الشيخ وهبة في اجتماع كبيـر مجلس المريـد. بين عظمة هنا وعظمة هنـاك كان يقضي السـاعات تعلو وجهه ابتسـامات غامضة في فخر. مرات كثيرة كانت خيالاته تشـده من وسـط الناس، فيغادرهم مسرعًا ويختلي بنفسه كي يتمثلها.

ظل كلام حامد يدور في رأسه ينغص عليه خيالاته، كلما انتشى بحكاية ونسج خياله تفاصيلها كاملة، ظهر الكلام كجرس المنبه أو كبوق عربة نقل كبيرة وسط علاقة حميمة، صراع يشق عقله، نكأه حامد بكل قسوة، وبكل بساطة مع ذلك.

لو وُلدت كافرًا كناصيف لعشـت الدنيا كما يحلو لي دون ذنب، آه من الذنب، تلك السـكين التي يحركها الله بيده، تمزق روحي، أنا أحقد عليك يا ناصيـف ـوقد بدأ صوته يعلوـ أحقد عليك.. لكن

انتظر.. أنت من يجب أن يحقد عليَّ.. سـأخلد في الجنة.. وسيجمع الله كل سكاكينه ليمزق بها رممكم في النار.. لكن هل أدخل الجنة حقًا؟! نسوان وحشيش وأدخل الجنة؟ لم خلقتني بهذا الضعف يا ربي؟ أنت خلقتني ضعيفًا وتريدني الآن في النار.. أتساويني بناصيف!! لن أسقط في النار.. أنا أعرف.. سيمد لي الشيخ وهبة يده الطيبة لو تعثرت قدمي على الصراط.. لن أعبر الصراط إلا معه.. هو يحبني ويعرف أني أحبك.

وأنت يا حامد كيف لا ينوبك من الذنب ولو حتى شكة دبوس.. أتحسب أن كلامك الكبير سيخيل على الله.. أنا أسخر منك ومن كلامك.. الوطن.. ثمن الحرية.. أن الله من خلق الوطن.. الحرية.. أي كلمة تلك وماذا تعني بالتحديد؟ وحده الرجل الذي يفترش الرصيف ويصلب طوله بضع لقيمات يعرف معناها ويدفع ثمنها.. أنت نفسك لا تصدق كلامك يا حامد.. فما بالك بالله خالق الكلام.

في المسافة بين مقلته ومعرض مجدي كان الشيخ وهبة يجلس على كرسيه، يلمح في انعكاس الزجاج بطرف عينه ظل مجدي، يروح ويجيء ويغيب برهة ويكمل، ظن الشيخ أن مجدي يعارك زوجته المسكينة في المحمول، صبر قليلًا عله ينتهي دون تدخل منه، ولما طال الأمر دخل على مجدي المعرض وبادره بالكلام:

- ارحم زوجتك المسكينة يا بني.

نظر مجدي ناحيته في حالة بين اليقظة والمنام، لم يعرف على وجه الدقة أهو الشيخ وهبة فعلًا أم بعض من خيالاته، فصاح به كالمجذوب:

- ماذا فعلت يا رب؟؟

***

كشـــك خالٍ ملاصق لبوابة حديدية كبيرة، تفتح على حديقة ذات نخيل، وأشـــجار تتســـاقط أوراقها الخضراء المائلة للحمرة، على ممر من بلاط يتخلله عشـــب أخضر، ممشـــى بديع بألوانه، موازٍ للأســـفلت عريض بانت خطوطه البيضاء المســـتقيمة والمتقطعة زاهية. الورود على جانب الأســـفلت تكاد تكون مرسومة من شدة تناســـق ألوانها ورقة تمايلها. جنة خالية من الناس، داســـتها بجرأة كعادتها، وعلى ما بها من فزع ولوعة راحت تمشـــي، متمايلة مع نســـمة رقيقة ملكت روحهـــا دون إرادة منها، مع كل خطوة يزول شيء من تقبض وجهها وتحل الطمأنينة. حدثتها نفسها: "مهما بلغت الحالة التي أتت بســـومة إلى هذا المكان من السوء، فأنا متأكدة أنها الآن بأحســـن حال، ســـومة جميلة وتحب الجمال، يكفي أن تخرج كل صباح إلى شرفة غرفتها، وتترك جسدها لتلك النسمات، وتفتح عينيهـــا الواســـعتين على تلك الجنة، في الغالب هي الآن بأحســـن

صحة، وتتمارض كي تظـــل في هذا المكان أطول وقت ممكن، آه منك ومن ألاعيبك يا سومة".

ظل عقل هند يراودهـــا بالفكرة وراء الفكرة، وعيناها متعلقتان بالشـــرفات علها تلمح سومة، وتساءلت مندهشـــة: "كيف يا ربي تغلق أبواب الشـــرفات عن هذا الجمال؟ ماذا يفعل أولئك المخابيل بالداخل؟" كانت قد وصلت إلى باب زجاجي لأحد المبنيين، يكشف عن باب من الخشب بديع النقوش، وقفت أمامه حائرة في أول الأمر حتـــى اعتادت النظر فرأت صورتها فـــي انعكاس الزجاج، انكبت على هندامها إلى أن تظهر طريقة للدخول، فإذا بصوت أجش أبانت نشـــازه زقزقة العصافير التي ملأت الهـــواء، صوت عالٍ متقطع من أثر الجري لرجل ضخم يلهث في بدلته الزرقاء ذات الشـــرائط الغريبة علـــى الأكتاف والصدر، ممتقع الوجـــه، يكبس كابه على رأسه بيد وفي يده الأخرى مفاتيح كثيرة وعصا صغيرة مضحكة، بدا لهند كمهرج ضل طريقه للسيرك.

- أنتِ يا هانم.. أنتِ يا هانم.

نظرت إليه هند بثقة مستفسرة دون كلمة منها

- أنا في الخدمة يا هانم، اؤمريني.

ردت هند باندهاش:

- أليست هذه مستشفى الجامعة؟!

فوافق الرجل بإيماءة من رأسه، واستطردت هند:

- جئت في زيارة لأمي.

- وأين بالضبط مكان السيدة؟ في الإدارة -وأشار بيده إلى المبنى الآخر- أم في سكن كبار الأطباء؟

- جاء بها أولاد الحلال إلى هنا بعد أن تمكن منها المرض.

ارتاحت أسارير الرجل وأخذ منه التعالي كل مأخذ، فشب صدره، وعلت أكتافه، وأشار باستهتار شديد:

- تعنين مريضة!!

وبصوت جعلته السخرية متقطعًا:

- العيادات الخارجية والطوارئ والمحجوزون -مفسرًا- المرضى أعني، من البوابة الأخرى يا بنتي.. في آخر الشارع بعد خروجك.

ورفع يده التي يشير بها ناحية هند وهمّ أن يدفعها خارجًا، غير أن هندًا جمعت شتات نفسها بصعوبة بالغة وحدجته بنظرة جعلها الرعب كسهم نافذ، وهرولت ناحية البوابة تمسح دمعة هربت في غفلة منها، ولم ترَ في خروجها غير جمال مهزوز قبيح،

حتى الورود تداخلت ألوانها كأنما شـــخبطها مجنون. وعلى البوابة الحديدية الكبيرة لمحت عاطف الذي انتظرها بالخارج بعد أن خاف الدخول معها، فنظرت ناحيته بثقة مصطنعة:

- بوابة المرضى في آخر الشارع.

مشـــت حتى آخر الشـــارع بعصبية كأنما تتعارك مع روحها، وعاطـــف يتأخر عنهـــا بخطوتين أو أكثر، يبـــذل كثيرًا من الجهد للحاق بها، لم يلحق بهـــا حتى وقفت أمام لمة كبيرة، لُحمة من كل لون، رجال ونســـاء من المدينة والريف، أمام شـــباك كشك صغير ميزته بعد أن صعدت الرصيف وشـــبت على أطراف أصابعها في رشاقة، فهمت أن الورقة الصغيرة التي يرفع بها الخارج من اللُحمة يده منتصرًا هي السبيل الوحيد للدخول إلى سومة، فرسمت ابتسامة على شفتيها المكتنزتين وجالت ببصرها بين الرجال الواقفين بالقرب من الشـــباك، ثم الأبعد، عل واحـــدًا منهم يأتيها بتذكرة معه، إلا أن الصراع على الوصول للشـــباك كان أقســـى وأعنف من أن ينتبه رجـــل واحد لكل جمالها وفتنتها، ظلت عيناها تطوفان المكان، من نساء يفترشن الرصيف، وبطاطين مكومة، أطفال يبكون وجماعات متفرقة حول البوابة الحديدية الكبيرة في فوضى. بائع الشاي فكرت فيه لثوانٍ إلا أنها خافت هيئته وعينيه الجائعتين. عادت من طوافها خائبة واستقر بصرها على عاطف:

ـ ألست رجلًا! فلتأتني بتذكرة إذن.

نظر عاطف إلى الحشـــد بدهشـــة وقلق، ثم ألقى بنفسه ممتثلًا لأمرها حتى غطس، وبعد نصف ساعة خرج ما بقي منه رافعًا يده بتذكرتين للدخـــول وعلت وجهه أمارات الانتصار. مدت هند يدها بفتور أخذت التذكرتين واتجهت إلى بوابة الدخول.

استقبلت رائحة الفورمالين مختلطة بروائح ككمكمة الثياب هندًا، بعد عبورها البوابة ثم صالة الاستقبال مرت بممر ضيق يفتح على فســحة مضاءة بالكاد حيث عنابر المرضى، غرف كبيرة رُصت بها الأســرّة في صفين، وخلق اللـه تروح وتجيء بالداخل، آهات المرضى وحلل الطعام وبكاء الأطفال، الممرضات يمشـــين بينهم في استهتار ورقاعة، صارخات على من تعلو آهاتهم من المرضى حتى يعلو صراخ أعمق وأصدق فيسود الغرفة الوجوم لدقائق، يأتي رجلان بالنقالة ويســـاعدهما ذوو المرحوم أو المرحومة في حمله، ومـــا إن يخرجا حتى تختلط الأصـــوات من جديد، تميز منها جملًا بسيطة مثل: لا إله إلا اللـه، أو كان/ كانت تضحك معنا منذ دقائق، جمل على هذه الشاكلة.

دارت هند بين الأســـرة ومن عنبر لعنبـــر، ومن طابق لطابق، تفحصت الوجوه وقد بدت متشـــابهة، وكلما جاءها أمل في العثور عليها تبدد لسراب، سألت المرضى والممرضات، وراحت تصف

لهم ســـومة، بدأت الوصف كما تراها، وانتهت منه بعدد الحسنات في خديها، والوحمة الظاهرة بكف يدها، وكلما اهتدى شخص إلى وصفها ودلها على مريضة في عنبر، تذهب إليها بأمل وترجع من عندهـــا بخيبة، ظلت تروح وتجيء وتصعد الســـلالم وتهبط منها، مشـــت مطأطأة الرأس تفكر "قد تكون تعافت ورجعت البيت وقت ذهابي إليها"، حتى رأت شبشـــبًا بثـــلاث وردات في أعلاه، ميزته وقت رأته، صاحت بفرح مشـــوب بالقلق: شبشب سومة أهديته لها في عيد الأم الفائت، كانـــت ترتديه وكأنما الوردات نبتت من كف قدمها البيضاء. اســـتوقفت من ارتدته برقة حتى لا تخيفها، وسألتها متصنعة الابتسام:

- من أين أتيتِ به؟

- اشتريته.

جاء عاطف من آخر الطرقة ونظر إليه قائلًا:

- شبشب سومة.

فارتبكت العاملة من إصرار هند وعاطف وردت بوجل:

- كان لسيدة طيبة، رأفت لحالي فأوصت لي به.

ردت هند وقد تسارعت ضربات قلبها:

- أين هي؟ أوصت! ماذا تقولين؟ خذي الشبشب ومالًا لو أردتِ..

مالًا كثيرًا.. اطلبي أي شيء لكن أرشديني إليها.

ـ كانت ضحكتها رحمها الله تصل إلى آخر العنبر، كل من رآها أحبها، تعالي معي.

مشـــت وراءها هند تمني نفسها برؤية سومة رغم كلام العاملة، لم تكن لتصدق، إن ابتسامتها لا تفارق وجهها على الرغم من سيل الدموع، شـــيء خاطئ في هذا المكان، شيء منسي وغامض، تملأ رائحته أنفك، والأبيض المتســـخ الباهت أينمـــا وليت وجهك، بقع حمراء وبقع صفراء باهتة كأنما تصنعها عينك. وصلت هند لعنبر دخلته أربع مرات من قبل أثناء بحثها وحيرتها في الوصف، وقفت العاملة في وسط العنبر وقالت بصوت خليط بين المسكنة والتشويق لم يخلُ من سخرية:

- أتدرون من البرنسيسة؟

سكتت للحظات ثم استطردت:

- ابنة الست سومة.

فصاحت بها واحدة من نزيلات العنبر:

- وتسالين عن سومية؟! كيف نعرف أن سومية هي الست سومة؟

كادت هند تشـــرح نفســـها، وكيف أن موظف الاستقبال لم يكن ليدخلها لولا ذكرت اســـمها الرسمي كاملًا، وتصورت أن التعامل

داخل المكان بهذا الاسم فقط، غير أن سيلًا من الدموع حرك لسانها في ضعف:

- أين هي؟

- كانت على نفس السرير، في نفس العنبر، لم يتغير شيء سوى الملاءة وأنا، رفعت الملاءة من الأرض إلى السرير بعد رحيلها، وسترفع أم محمود ملاءتها إلى نفس السرير بعد رحيلي، وستأتي ابنتي متأخرة أيضًا، وقد لا تأتي بالمرة. جاءت النسوان بأمك، تخلصن منها على نفس هذا السرير ورحلن، وظلت تمني النفس بطلة أخيرة لجمالك، كانت تحبك بجنون ولا تمل حديثًا ذكر فيه اسمك يا هند

نظرت أسفلها لسيدة تفترش الأرض بين سريرين واستطردت:

- يا أم محمود، أوصيكِ بحق الوجع، بحق كل أنات المرض اللعين، حينما تأتي ابنتي ما بقي لي من فرح يمشي على الأرض، إن أتت، أن تحتضنيها.. تحتضنيها.. احرصي على أن تبلل دموعها شالك، لا تتركيها قبل ذلك أبدًا.

رفضت مساعدة العاملة وأم محمود، وسندت نفسها بإصرار حتى وصلت هند، وغابت في حضن، استحالت معه مصمصة الشفاه وتهكم النسوان على هند وزينتها، إلى وجع شفيف وحزن صادق عميق.

هذا المكان يخبز الموت بضمير مستريح، حتى وروده بلا قلب، كثلاث وردات في شبشب سومة.

***

كل شـــيء في مكانه بدقة، العصافير على الشجر وعلى أسلاك العواميد، النقر بالأسفلت، القطط حول أكوام الزبالة، غطاء الصرف الصحي وقد فقد نصف استدارته في ظروف غامضة، عم سعد يقف أمام دكانه ينبه المارة "انتبهي يا بنتي.. انتبه يا ابنى.." القفص يغطي الصرف ما إن يدخل عم ســـعد دكانه لأي سبب حتى يختفي، فيأتي بقفص آخر وكل الأقفاص متشابهة، فلا تكاد تلمح اختفاءه ما دام عم سعد حيًا، إذن فالقفص أيضًا في مكانه. طيور بيضاء كثيرة متسخة دائمًـــا تنازع القطط أكلها، لا يعـــرف أحد بطول المدينة وعرضها لها اســـمًا، تلك الطيور واحد من أسئلة حامد الكبرى، وكان يصر أن يســـمي العالم لابنته الصغيرة، وقـــف أمامه قائلًا: (أبو فصادة) وكان يقصد في الحقيقة (أبو قردان)- صحيح أنه تدارك هذا الخطأ فيما بعد، كلما رأى طائرًا من هذا النوع بمصاحبة الصغيرة صاح (أبو قردان) وكرر كي يُنســـي الصغيرة خطأه الأول، وفي حقيقة الأمر هو لا يعرف شكل أبو قردان أو أبو فصادة على وجه الدقة، فقـــط صور بعيدة من كتب مدرســـية بهتت مـــع الزمن، فأكثر من العصافيـــر والحمام، والهدهد قـــد رآه مرات عدة، في مرة من تلك

المرات وكان صغيرًا قـــال لأصحابه غير مبالٍ: "لقد رأيت هدهدًا بالشـــارع، هدهدًا كقصة النبي ســـليمان"، غير أن دهشة أصحابه الأطفال وتكذيبهم له جعلاه يشعر بتميزه؛ فهذا دليل على أنه الوحيد الذي يراه، وكان سبب لمعة عينيه وفرحه الخفي كلما رأى واحدًا.. لسبب لا يعرفه ظلت تلك الحكاية على تفاهتها وكأنما حدثت أمس. أكثر من الحمـــام والعصافير والهدهد لا يعـــرف، من الممكن أن تضيـــف إليهم اليمام، يعرف شـــكله لكنه ظـــن خاطئًا أنه نوع من الحمام، وظل هذا الظن معه حتى مطلع شبابه، أما السمان فلم يعرفه بالاســـم إلا وهو كبير، وعرف شكله مطبوخًا بعد سؤال ليلى له في كل مـــرة بعد أكله: "ما رأيك بالســـمان؟" وكان يظنه حمامًا أيضًا لكن حالته صعبة.. وقت رأى صينية حمام حالته صعبة عرف من فوره أنها ســـمان. على أي حال كانت الطيور البيضاء التي يعرف اسمها اللـه في مكانها، حتى عربة عم رمضان، السريحة، العروق الخشـــبية والقماش، التجار أمام دكاكينهم، علي النوبي على رأس موظفي الإشغالات، يتكلمون فيما بينهم بنفس الاهتمام والجدية غير مبالين بشيء، الشيخ وهبة وجمهور الذقون داخل إلى الجامع الكبير خارج مـــن الجامع مع كل صلاة، مازورة يتقدم صبيانه على مهل يوزع الصباح والسلام.

كل شيء بمكانه ومعركة لم يبقَ منها غير (حملة) يعرف السوق ميعادها قبل أن تجيء بأيام، يُهد السوق قبلها بساعة، ويُبنى بعدها

بساعة بشكل آلي، حتى مل المأمور نفسه. غريب حقًا أمر الاعتياد، تبدأ الدنيا بأحداث قاسية ونوازل جادة، يقف الواحد منا أمامها وكأنه على حافة الحياة، يثور ويطلع وينزل ويخبط رأسه بالحيط، يقول لنفسه لا يمكن أن أكمل إلى الغد في هذا الحال، لن تسكت الناس على هذا الوضع أبدًا، وينقضي يوم أو يومان في كدر وفكر ومداولات وخطط، حتى يجر اليوم الأسبوع ويجر الأسبوع الشهر ويجر الشهر السنة، والأحداث بنفس قسوتها وأسوأ، والنوازل تتسارع في يسر. أن تكون المصيبة جزءًا من يومك بفعل العادة، أن تصحو من نومك مبكرًا بكل نشاط قائلًا: "حتى لا أتأخر على الكارثة".. أن يكون كل حلمك ألا تغادر الكارثة التي اعتدتها لكارثة جديدة، وتأتي الجديدة فتدعو الله أن يديمها بعدما اعتدتها، وهكذا.

تصور أن يعتاد إنسان الحرب وويلاتها، أن يتحول الواحد منا إلى رقم في الوفيات أو المصابين، لا تهتم حتى بعدد أفراد أسرتك، فهو رقم غير صحيح في كل الأحوال، قد تبعث ابنك إلى السوق فلا يعود فتبعث الآخر. أن تصحو فلا تجد بيت جارك أو تصحو في العراء، تخاف النظر في وجوه أحبتك وناسك؛ حتى لا تحفظها مضطرًا بفعل العادة فتعذبك وجوههم في نومك وصحوك وقت افتقادهم، تعيش مع أناس بلا وجه فتصير بلا وجه. هناك إنسان في مكان ما الآن ونحن نتكلم، اعتاد تلك البشاعة، يصحو من نومه

يحمد الرب أنه يصحو، تصور! يشعر بتميزه لا لشيء سوى كونه حيًا، يخـــرج من كوة في الجدار، فلا يجـــد الطريق، يعبر الحفرة وراء الحفرة عله يرجع برغيف لأبنائه، من أجل خبز قد لا يجيء! أي خبل هذا! ويأتي إنســـان أيضًا، إنسان! ويسمي هذا الفعل محبة للحياة، على وجه الأرض كائن بتلك البشاعة.

وحدهم الجلادون يعرفون، يغيرون طرقهم حتى لا تعتاد نفس الألم، يصل بك إلى حافة الموت في كل مرة، قد يختار البعض أن ينفلت من بين أيديهم عابرًا تلك الحافة، وقد يصمد البعض محبةً للحياة!! -كنت أود لو استعمل هذا الراوي كلمة أخرى، لكن يبدو أن البشاعة تمكنت من أخلاق الإنسان- فها هو عم ناصر عامل مصنع (ساملي تكستايل) اعتُقل في 2003 بعد الإضرابات والاعتصامات ضد قانون العمل الموحد، وما تبعها من فصل تعسفي، يبعث برسالة لحامد من داخل معتقله، ولم يكن مر على وفاة المعلم صبحي غير بضعة أشهر.

"يـــا حامد".. هكذا بدأ رســـالته دون أي مقدمات.. "أكتب إليك بنصل ســـكين نسيه الجلاد بجسدي، آه لو تشـــعر تلك الورقة فتنز دمًا بين يديك لتعرف" لم تكن ورقة في حقيقة الأمر بل جزءًا غير متساوٍ من كرتونة تم اقتطاعه على عجل، كُتبت عليه كلمات كبيرة بخـــط مهزوز "أنا صامد رغم كل شـــيء، رغـــم الزحف كالدودة

بجذ تم سلخه والتعليق كالبرص والنباح كالكلب، رغم العصي الكهربية والسجائر المطفأة بجسدي"... "أكتب إليك بإصبعين لا أضمن بقائهما للغد" ثم خطت حروف كثيرة تشبه الكلمات، استطاع أن يميز منها حامد "طمئن الرفاق لن يعرف الجلادون أسماءهم ما حييت" وكلمات أخرى فهم منها حامد رغبة عم ناصر في عزائه، وكلمات أخرى عرفها بالشبه مفادها أن على الحزب الشيوعي أن يفعل شيئًا أكبر من البيان.

لم تغب تلك الرسالة عن عقل حامد أبدًا، ظل يراها كلما أغمض عينيه، يرى ذلك الجزء المقطوع من كرتونة وقد خُطت عليه كلمات مهزوزة باللون الأحمر، على الرغم من كونها خُطت بقلم أسود فإنه يرى كلماتها حمراء، ليس في ذاكرته فقط، وإنما من يوم قرأها، من أول لحظة وقعت عيناه عليها.

مسألة أن عم ناصر اختص حامدًا برسالته لم تكن لتدهشه فيما سبق. فلطالما اعتبره كابن له، لم يكن يخاطبه أبدًا بغير أستاذ حامد. كان يراه بعين تمنى حامد لو يرى نفسه بها، يصدقه أكثر مما يصدق حامد نفسه.

وقت سيطر الشك على الحزب، وتوجس الكل من الكل، لا يمر يوم دون أن تسمع أن فلانًا مخبر، وبعد كل قبضة من الأمن على أحد أعضاء الحزب يُتهم فيها فلان أو علان،

فخالـــه صديـــق اللواء فلان، أو شـــوهد مـــع النقيـــب علان في المـــكان الفلانـــي، أو يفعـــل كـــذا ولا يقـــوم بهذا الفعل ســـوى المخبرين.. إلخ.

يـــوم عُرف في الحزب أن والد حامد هو المعلم صبحي مشـــى بينهم وكأن علامة اســـتفهام كبيرة على رأســـه.. صحيح لم يوجه له أحد في الحزب أي اتهام، لم يخضع حتى لاســـتجوابات داخلية خضـــع لها رفاق آخرون، لكنه لاحظ أن الكلام ينقطع وقت يدخل، ويعرف عن وقفات وإضرابات بعد حدوثها كالغريب، بعد أن كان واحدًا من منظميها.

كانت دهشته في الحقيقة أن تأتيه هذه الرسالة، وهي على ما بها من سرية وخطورة، بعد أن شال قدم من الحزب الشيوعي وخطا بها إلى إرث أبيه، وترك طيفًا باهتًا منه بالحزب، كأن عم ناصر أراد أن يقول له: أنا أثق بك، أتشكك في الكل واختصك أنت.

أول فكرة خطرت برأس حامد وقت قرأها أن تلك الرســـالة هي في حقيقتها شهادة حسن سير وسلوك، تأتيه من حافة الموت، شهادة لا يمكن التشـــكيك في صدقها. جاءته الرسالة يوم ولادة ابنته منى، كبرت معها في روحه عامًا بعام، فكلما استدعاها عقله قرأها وكأنما لأول مرة.

في مرة كان حامد يعبر ميدان العتبة متجهًا إلى الموسكي، تملأ

الحسابات رأسه، النواقص، التشكيل الشتوي لدكانه، "هل ما أحمله من مال يكفي التسوق؟ هل يستحق عناء السفر من المدينة إلى القاهرة؟" أسئلة كثيرة تحاصر عقله بالمناسبة في كل مرة يتسوق لدكانه يسأل نفس الأسئلة، كأنه قلق وجودي يلازم التجار، أو واحد من شروط المهنة، خصوصًا في موسم الشتاء الراكد.. يمشي مهمومًا، واحدًا وسط آلاف، إذ استوقفه وجه قديم يعرفه دون النظر إليه، كأن شيئًا هز نفسه قائلًا: اترك كل ما برأسك الآن، وانتبه إلى هذا الوجه.

وجه سارة جورج، عرفها وقت كان بأمانة التثقيف في الحزب، طاقة لا تهدأ، متمردة بشعرها (الكيرلي) وعينيها الواسعتين، تتكلم في الاجتماعات بكل حماس، تسند بيد على الطاولة حيث سجائرها والولاعة المذهبة وقهوتها، وتشير باليد الأخرى شارحةً نفسها، صادمة وجريئة، تتكلم عن الشهرستاني، وابن سينا، والقاضي عبد الجبار، وابن خلدون، وإخوان الصفا، كما تتكلم عن لوي ألتوسير وبلبيبايف، تغلف كل ذلك بأنوثة مكتملة راقية، من نظرة عينيها إلى أصابع يدها الطويلة كعازفة بيانو.

وقت رآها حامد بالعتبة عرف من فوره عمَ كان يبحث في كل النساء من قبل، إجابة مؤجلة لسؤال صورت له نفسه أنه عصي على الحل، عرف ما افتقده بالتحديد في ليلى وبحث عنه عند نساء الأرض، سارة كانت حقيقة بين يديه، ولم يكن حلمًا مشوشًا يبحث عنه خائبًا كما ظن.

- حامد صبحي.

- سارة جورج.

فردت سارة ذراعيها مبتسمة بألفة، فدارت أفكار كثيرة في عقل حامد بلحظة. فيما سبق كانت مقابلة رفيقة بحضن ودي بريء شيئًا عاديًا مألوفًا بالنسبة إليه، صحيح أن الشاب الغر ابن المدينة الصغيرة أخذ وقتًا كبيرًا حتى أصبح مألوفًا وبريئًا بالنسبة إليه، إلا أنه آخر الأمر أصبح كذلك، لكن ذلك الشخص التقدمي المناضل حامد آخر غير الماثل أمامها في دهشة بلحظتنا تلك.

فرد ذراعيه محتضنًا إياها، مستدعيًا كل البراءة التي ظنها في نفسه، وكاد أن يمر الحضن وديًا بريئًا لولا خانته ذراعه اليسرى، وضغطت ضغطة بسيطة موحية أعلى مؤخرتها، وكأنما أراد أن يقول لها أنا متفوق عليكِ بكل جمالك، أنا ذكر، ألا تذكرين صولاتي وجولاتي معكِ؟ أو فعل ذلك مخافة أن يكون لقاءً عابرًا يمر مسرعًا دون أن يذكّرها بليالي الوجد والشوق. قد يكون هو نفسه لا يعرف سبب ذلك الفعل، لكن الأكيد أنه ورط نفسه في مساحة لم يكن جاهزًا لها، مما أبان اضطرابه.

خبطت سارة كتفه بقبضة يدها بابتسامة جادة، فاستسلم وهدأت عيناه على الفور، وهي بدورها لم تزد عن ذلك مخافة توتر اللقاء، وبعد تبادل السلام والسؤال عن الأحوال المعتاد في ود بدا قديمًا،

بدأ الكلام في السياسة يطول، فدعاها إلى علبتَي بيرة في شارع الألفي، وافقت دون تردد وتأبطت ذراعه، مشيا سويًا في ألفة آنست لها روحه.

ـ تعرف أن اليسار متفائل بهذه السنة، شيء كبير على وشك الحدوث.

ـ اليسار دائمًا متفائل يا رفيقة.

رد بابتسامة نسيها، ابتسامة رقيقة لا تخلو من سخرية، أشبه بالمداعبة وخصوصًا وقت قال "يا رفيقة".

ـ لا، أنت لم ترَ إضرابات عمال المحلة في ديسمبر الفائت، لقد نجحت الإضرابات بعد ثلاثة أيام فقط، أنت لم ترَ الأعداد.. أنا كنت هناك، ورأيت النظام يترنح ويرضخ لمطالب العمال كاملة، لو رأيت ممثلي النظام وأصحاب رأس المال وهم يسترضون العمال، لن تقول ذلك.

- عرفت بالطبع، غير أنها لم تترك أثرًا بالقاهرة، بل لم يسمع بها أي مصري. لقد دخلنا ميدان التحرير في 2003، وأُعلن حظر التجوال، وقامت الدنيا، رغم أن إضرابات العمال في سنتها لم تكن بتلك القوة بعد. ثم ماذا بعد؟

- يناير هذه السنة سيذكرك بيناير قرأت عنه، يناير من ثلاثين

سنة بالضبط. أنت نفسك تقول إن إضرابات 2003 ولم تكن ناجحة وجدت صداها في القاهرة، فمـــا بالك بإضرابات 2006 ونجاحها، وإجبارهـــا الحكومة على التفاوض، بعد فشـــل الحل الأمني الذي طالما أنقذها.

أخرجت من شنطتها علبة سجائر ميريت فضحك حامد وقد تنكر يوم عرســـها، كانت أيامها تدخن سجائر كليوباترا سجائر الشعب، وبعد أن حجزت في صالون تجميل راقٍ، كانت كل مشـــكلتها هي كيف ستُخرج علبة سجائر حقيرة كـ(الكليوباترا) وسط تلك السيدات، فدعت الرفاق لاكتتاب عام من أجل علبة (ميريت)، وقد كان.

كانت ســـارة فـــي غمرة حماســـتها فلـــم تنتبه لضحـــك حامد واستطردت:

- فشل الحل الأمني في المحلة هو بادرة فشل الحل الأمني في القاهرة.

صمتت لحظة..

- بمناسبة 2003..

ثم بحزن وكأنما تداور حتى تصل لمرادها:

- رحم اللـه عم ناصر، دفع الثمن عنا جميعًا، لكن هل بعث لك فعلًا برسالة؟

ثم وقد لاحظت تغير وجه حامد بعد أن علا صوتها بالسؤال، وكأنه مرادها في أصل الكلام:

ـ أقصد مكتوبة؟ رسالة مكتوبة؟

رد حامد بمرارة:

ـ رحم الله عم ناصر، كان بمثابة الأب، أما بخصوص الرسالة.. لا.. لقد كذبت عليكم.

ـ لم أقصد ذلك، صدقني، أنت لست فقط صديقي ولكنك بمثابة أستاذ لي، ولم أشك بك لحظة واحدة.

ـ على أية حال يناير أوشك على الانتهاء وسنرى كلام من الصحيح.

ردت سارة بأسى بعد أن شل الحرج تفكيرها:

- وكذلك لقاؤنا مع الأسف.

- صحيح، مع الأسف.

غادرت سارة مسرعة كأنما أرادت أن تنشق الأرض وتبلعها، بينما جلس حامد يفكر "قد تكون تلك الرسالة مقلبًا من صديق".

***

شـــارع الجمهورية كســـكة أبو زيد، تدخله من كل اتجاه، يقسم المدينة نصفين تقريبًا، إن شـــئت الدقة يقسم المدينة القديمة نصفين بالفعـــل، مدينة ما قبل التســـعينيات قبـــل أن تحاصرها التجمعات العمرانيـــة الجديدة وتدخل في لُحمتها. يحكي عم ســـعد وقد جاوز الثمانيـــن من عمره أن هذا الشـــارع كان ترعـــة في الأصل وقت كان هو نفســـه صغيرًا، ولم يكن في المدينة غير شـــارع الســـوق وحواشـــيه وكان اسمه شـــارع الجامع الكبير، حتى النقطة -يقصد مركز الشرطة- كانت في أرض الباشا، وسرايات -مشيرًا بيده- هنا وهناك، قامت تلك الشـــوارع في كنفها ثـــم بديلًا عنها، وبيوت في تجمعات صغيرة تُعرف باســـم أقدم سكانها، والمساكن بناها جمال عبد الناصر بعد النكســـة وطوال حرب الاســـتنزاف.. "هل تعرف أننا اســـتقبلنا أهلنا من مدن القناة استقبالًا حافلًا؟ استقبلناهم كأبطال بجريد النخـــل وأطواق الورد رغم مرارة الهزيمة.. هل تعرف أن النحاس زار المدينة؟ وقف على الكوبري العلوي بالمحطة وخطب فينا.. هل تعرف أن الإنجليز بنوا تلك المحطة أصلًا كي يســـرقوا القطن؟ والبيوت خلفها كانت الكامب الإنجليزي".

وتنهد بأسى ناظرًا إلى شجرة فيكس متربة: "كان الأخضر أينما وليت وجهك، أنت لا تعرف شيئًا بالمرة".

واضح أن هذا الأسى متوارث؛ فبنفس الأسى يكلمك الآباء عن

التجمعات السـكنية الجديدة -وهي لم تعـد الآن جديدة في الحقيقة- وبعد سنين سيكلمك أصحاب تلك التجمعات به.

بعد موت سومة بسنتين ماتت أم عاطف، حضر العزاء وجيه بك بنفسه في واحدة من جولاته بالقرى، استعدادًا لخوض الانتخابات، بصحبته المعلم مازورة وصبيانه لتأمينه وحشد الأصوات له، فرحت هند بصدق لرؤية مازورة، سبب الفرحة نابع من شوقها للمدينة وليس لشخصه، حتى إنها اعتبرت رؤيته بشرة خير، وعلامة على اقترابها من المدينة مرة أخرى. وبينما الرجال في العزاء مطأطئي الرأس، والشيخ الشحات يتجلى، دخلت نعمة العزاء -وهي على صغرها شهية كأمها- موجهة بصرها على المعلم، اخترقت الصفوف حتى وصلته هامسة في أذنه: "أمي تريدك".. تحرج مازورة وكاد ينهرها؛ فلا يصح القيام من وسط الرجال وهو المعلم باستدعاء بنت صغيرة، إلا أن مخافة أن يعلو صوته وفضوله تشاركا تهدئته ورد عليها هامسًا: "بعد الربع".

صدَق الشيخ الشحات منهيًا الربع الأول، وخرج مازورة يحاذيه وجيه بك بعـد واجب العزاء، في مصاحبـة عاطف وأهله بقصد الوداع، ووراءهـم صبيان المعلم، اخترقت نعمـة صبيان المعلم وشدت بكفها الصغيرة كمه، فانتبه لها وكان قد نسيها تمامًا، فأوقف

المعلم الموكب بإشـــارة منه، ومشـــى خلف الصغيرة حتى وصلا هندًا.. لم تدهشه رؤيتها فقد صرف صبيانه وذهب وحيدًا بعد تأمله وجه الصغيرة جيدًا، وشـــبه يقينه من كون الصغيرة ابنتها، ووقت رآها ابتســـم سعيدًا بفراسته، وإن مشـــى طوال الطريق إليها حذرًا يتحســـس مسدسه، واتسعت ابتســـامته حين وقع بصره عليها بكل فتنتها.

- أبلغ معلمك دون سلام أن هند تريد بيتًا في السوق.

كلمته هند وقد انقطعت عنها المدينة وأخبارها، كلمته على أساس أنه الولد مازورة صبي المعلم صبحي، وذكرت دون سلام كمفتتح لثورة غضب قادمة على ترك المعلم صبحي سومة تموت وحيدة.

- المعلم في ذمة اللـه من ســـنتين ويزيـــد، لكن دعي لي الأمر يا ســـت البنات رغم انشـــغالي في الانتخابات.. لكن.. ليس بشارع السوق شبر خالٍ.. مكان قريب يفي بالغرض.

رد مـــازورة منتصبًا يفرد كفه اليمنى على صدره، وابتســـامة الثقة تعلو وجهـــه، وقد فضّل أن تعرف أخباره وما وصل إليه بعد عودتها المدينة من الناس، بدلًا من أن يتحدث عن نفســـه فيقلل من شأنه أمامها.

- لا إله إلا اللـه.. المعلم صبحي.. اللـه يرحمه، كنت أعده أبًا لي، ماتت سومة حزينة عليه إذًا.

نسيت هند أن تؤكد مجددًا على موضوع شارع السوق وليس مكانًا قريبًا من هول الخبر، وأخذها حزن صادق عليه.

- ماتت الست سومة.. لا إله إلا اللـه.

وراح الكلام وجاء في حكاية موت المعلم صبحي، وموت الست سومة، والموكب بالخارج في الانتظار، وعاطف وأهله في حرج من ترك ضيوف بمكانتهم منتظرين وحدهم، وتوافد المعزون للربع الثاني فوقفوا على مقربة من العزاء دون الدخول حتى يصطف أهل عاطف، والشيخ الشحات وقد جلس وحيدًا في العزاء كاد أن يناديهم في الميكروفون، بعدما أرسل مساعده ليستطلع الأمر.

وجيه بك ملبوخ على عينه، يدخل عربته فيودعه أهل عاطف واقفين حتى يغادر، وهو لن يتحرك خطوة دون مازورة وصبيانه، وصبيان مازورة امتثلوا لأمر المعلم بالانتظار، لا توجد قوة على الأرض تغير موقفهم، ولا يجرؤ واحد منهم على أن يستدعيه أو يسمح لأحد باستدعائه، وأهل عاطف تسمرت أقدامهم في الأرض في انتظار فرج اللـه، والرجل يدخل عربته ويخرج منها على قول واحد: "بارك اللـه فيكم"، ومازورة آنس ود هند وحلا الكلام.

دائـــرة على تفاهتها طالت القرية بضيوفها، لم ينجُ منها ســـوى معزي الربع الأول، حتى أولئك قد استكثر الفضول نجاتهم، فوقفوا في مكان غير بعيد يســـتطلعون الأمر، وتجلـــى الخيال والّفت كل

جماعـــة حكاية في محاولة منها لتهدئة فضولها، من كان بعيدًا عن الحشد أكد أن عاطفًا ســقط مغشيًا عليه والبيه رفض المغادرة قبل الاطمئنان عليه، وكلما اقتربت من الحشــد سمعت حكاية، فمن أكد أن البيــه أصر على تحمل مصاريف العــزاء كاملة وأهل عاطف رفضوا بحزم، ومن أكد أن خلافًا كبيرًا نشب بينهم إبان العزاء.

كما خرجت حكايات شــريرة لكن لا داعي للخوض فيها تجنبًا للمــس بأعراض الناس، صحيح أنه مــن الصعوبة بمكان أن تفهم مــا علاقة تلك الأحداث بالأعراض، لكــن في آخر الأمر خرجت حكايات شريرة، وهكذا ولدت الحكايات حكايات كأثر الفراشة.

دائرة جهنمية لن ينهيها سوى ظهور مازورة المنتظَر، الذي ما إن ظهر حتى اختفى الموكب في ثوانٍ واســتؤنف العزاء، وحكى الرواة فيما بعد أن الشــيخ الشحات نال الكدر من صوته فما انجلى مــرة أخرى، وأن أهل عاطف أخلوا باتفاقهم معه، وحلف الشــيخ أغلــظ يمين بأن لا يعود تلك القريــة الظالم أهلها أبدًا، وإن لم تكن تلك الحكاية مــن المتفق عليه، وغلبة الظــن أن تلك الرواية غير صحيحة، فمن جرت على لســانه مشكوك في صدقه، بالنسبة إليّ على الأقل، فهو من بدأ الحكايات الشريرة حين ابتسم واثقًا: "أقطع ذراعي إن لم يكن وراء تلك اللمة النسوان".. وللمفارقة كانت وراء تلك اللمة زينة النســوان بالفعل، لذلك قلــت غلبة الظن فلا مجال لليقين في رواية.

رجعت الست أم نعمة المدينة في بيت واسع من طابقين يتوسط شـــارع الجمهورية، لم تأخـــذ وقتًا كبيرًا حتى عـــادت إليها ذاكرة المدينة، وحفظت مســـالكه كاملة، أما عاطف فقد تاه في مســـالكه، يخرج من شارع يقصد مكانًا فيلف حتى يعود من مكان بدأ.

في أول الامر لم تحب هند الشارع، إحساس بالندم يعكر صفوها "كيـــف لم أؤكد على مازورة، شـــارع الســـوق وفقط، لا تعني لي المدينة شيئًا وأنا بعيدة عنه، أين كان عقلي وأنا أسكن هذا الشارع؟ كيف ســـمحت له بإقناعي؟" من النادر أن يأتيها شعور بهذا الشكل، غير أنها بعد فترة ألفت المكان وعرفت حكاياته كاملة، ومع الوقت عرفت أن عشـــرين دقيقة أو يزيد قليلًا عن شـــارع السوق ليست بأمر، بل فرصة لها لرؤية الصورة كاملة، بدلًا من الخلط والتشتت الذي يصاحب الوجود في بؤرة الأحداث.

"إلى أين يذهب بكِ الشـــوق يا هند؟" ســـألت نفسها بدلال وهي تخطر على الأرض بكامل زينتها بلا وجهة محددة، وبطبيعة الحال ذهب بها الشوق إلى شارع السوق.. غير أن الصورة التي انطبعت على صفحة عينيها في تلك اللحظة مختلفة تمامًا عما جال برأســـها طوال انعزالها بالقرية، صورة يستحيل معها الحنين لشارع لم يبقَ منه سوى اسمه، كل شيء تغير حتى أسفلت الشارع.

بعد أن خلصت نفسها من محاصرة السريحة بالثقة والاستعلاء

تارة، وبنظرات محذرة تارة أخرى، وبنظرات واعدة معاتبة إذا أحسنوا الأدب مرات، وصلت إلى دكان المعلم صبحي، هي تعلم أن المعلم مات، ومتأكدة أن شخصًا آخر بالدكان، لكنها بحاجة إلى فتح حوار آمن حتى تستجمع شتات نفسها، كانت بحاجة لنقطة انطلاق، ثغرة تنفذ منها إلى شارع السوق وحكاياته، ولم تجد أنسب من هذا الدكان لذلك، وخصوصًا وقد عرضت فتارينه ملابس حريمي، تدخل وحجتها معها إذن.

في حقيقة الأمر هي وجدت نفسها أمامه، كما وجدت نفسها في شارع السوق.

***

أيام بالغة التعقيد والصعوبة؛ بين موسمين، فلا اكتمل التشكيل الصيفي، ولا بقي من تشكيل الشتاء ما يستر الدكان.. فترة غلبها التردد، غلب زبائنها وتجارها، غلب حتى سماءها وشمسها على السواء، يدخل الزبون الدكان لا يعرف ماذا يريد، يفرد القطعة وراء القطعة متحسسًا جيبه، يقف على شفا حفرة يتوقف عمقها على ما في هذا الجيب، لو موظفة -مثلًا- تجهز ابنتها كالواقفة أمام حامد الآن، تجد حفرتها سحيقة ومرتبها كاملًا في شنطة على كتفها، لا تفارق يدها قفلها، حتى إنها تفرد قطع الملابس لابنتها بيد واحدة

"لو كانت تلك الوردة حمراء.. لو كانت على الجانب الأيسر بدلًا من الأيمن.. لو كان أقصر قليلًا.. لو كان أوسع قليلًا.. لو كان أضيق قليلًا.." مع كل قطعة (لو) بلا قيمة، ملاحظة لا تقصدها في ذاتها، تضرب في ثلاثة اتجاهات على ما يبدو عليها من سذاجة، أولها لحامد كأنما تقول له تلك القطعة لا تعجبني لو لم أشترها فالعيب عندك، أنت لا تستطيع أن توفر لي ما يعجبني حقًا، ولو اشتريتها عليك أن تخفض قيمتها لأني أشتريها على مضض. ثانيًا لابنتها كي تستشف منها أي القطع تتشبث بها أكثر. وفي الأخير تؤكد لنفسها وتكرر: أنا أشتري على مضض، تتحسس موطأ لقدمها لو.. فقط لو أخرى.. لو الأساسية الصادقة في الحقيقة هذه المرة، لو قررت أن تنزل تلك الحفرة.

على الجانب الآخر حامد يفند الملاحظة وراء الملاحظة، يتفحص بعينيه الأم وبنتها، يسأل نفسه من يملك قرار الشراء، القرار الحقيقي للشراء، الأم أم ابنتها حتى يدفع الكلام باتجاهه، واكتشاف هذا الأمر معقد، ليس بسيطًا كما يبدو، بل هو لب عملية البيع نفسها، فلو عرفت من بيده قرار الشراء لأنجزت نصف مهمتك في البيع، وهذا القرار وقف على الرغبة في الأصل بجانب عوامل أخرى، هل تضغط البنت على أمها للشراء، فتكون بصف البنت حتى تقتنع الأم؟ أم هي بنت لا يعجبها العجب وأمها تريد أن تنهي بنود تجهيزها، فتدعم الأم حتى تقتنع البنت؟ أم هناك توافق

وخطة مسبقة بينهما على شراء قطعتين مثلًا، و(لو) تلك حتى يتمكنا من الفرجة على كامل قطع الدكان، والضغط عليك للوصول لأقل سعر؟ أم تلك الخطة لكشف الأسعار والمقارنة حتى ساعة الشراء الحقيقية، ولو أن حامد استبعد الفكرة الأخيرة من تشبث الأم بشنطة يدها.

من ينتصر في هذا الصراع؟ من يستطيع أن يُخرج هذا المال من شنطة اليد؟

وجّه حامد كلامه للأم بعد ثوانٍ في محاولة منه لدفعها في الحفرة، هو لا يفعل ذلك بغشم، بدقة يأخذ بيدها للنزول في تلك الحفرة، يغير دفة الكلام من (لو) اشتريت إلى بكم أشتري.

منذ ساعة واحدة فقط قبل الأم وابنتها دخلت الدكان صديقتان، واحدة بغرض الشراء والأخرى بدت مرافقة لها، ما إن دخلتا حتى اهتم حامد بالزبونة وأثنى على ذوقها وفهمها، وكلام على هذه الشاكلة، وأنكر الأخرى تمامًا، إبان عملية الشراء تأكد حامد أن التي أنكرها هي من بيدها القرار، وليست تلك البنت ضعيفة الشخصية التي بالغ في الاهتمام بها.. وقف حامد في منتصف الطريق متحيرًا، أيقطع الشوط لآخره ويستحث الزبونة أن تثق بنفسها واختيارها ولا تلقي بالًا بصديقتها، ويعمق الكره في نفس الأخرى بعد إنكاره لها، أم يبدأ الطريق مع المرافقة من أوله على الرغم من تلك النظرات الحادة التي ترمقه بها؟

حزم أمره بعد ثـــوانٍ، فالطريق الأول يبدو بعيد المنال رغم ما قطعه منه، أما الطريق الثاني فعلى صعوبته وشـــوكه قد يأتي منه بنتيجة (لو) أحسن المشي فيه، وعليه الآن أن يجد مدخلًا للمرافقة، أن يجـــد ثغرة فـــي هذا الحائط ينفذ منها إلى مـــراده، فهي في تلك اللحظة تكرهه لا ســـبيل إلى إنكار ذلك، فـــلا يعادل وجع الإنكار عند المرأة وجع.. أكمل حامد اهتمامه بالبنت ضعيفة الشـــخصية، إن كان تلك المرة في فتور، ثم بالتفاتة بســـيطة منه أثنى على حلق بفص أزرق على شـــكل وردة شديد الرقة في أذن المرافقة وسألها عن ســـعره، هو في الحقيقة يقول لها: أنا آســـف.. شكرته وردت عليه بنظـــرات أقل حدة، وإن ظلت الحدة أشـــبه بعتاب، وهى في الحقيقة تقول له: لقد أخطأت خطأ كبيرًا ولكن استمر قد يكون الأمل موجودًا، بداية ذكية على أي حال.

ظل حامد يوزع اهتمامه بيـــن الصديقتين، وإن خص المرافقة بجـــل اهتمامه، حتى نكـــزت فخذ صديقتها كعلامـــة لإنهاء عملية الشـــراء، فامتثلت الأخرى ودفعت الحساب. في تلك اللحظة علت وجه المرافقة ابتســـامة كأنما تقول له: بالرغم من كونك أهنتني إلا أني عفـــوت عنك لنبلي وكرم أخلاقي، لقـــد راهنت عليَّ ورهانك صحيح لـــذا أنا لم أخذلك. أما حامد فعلـــى الرغم من نوله ما أراد فإنه أحس بشكله مسخرة وهو يوزع اهتمامه بين الصديقتين بحذر، وظل يعاتب نفسه بعد رحيلهما.

وقت دخلت زبونة أخرى وحدهـــا تلك المرة، نوع من الزبائن يحفظه حامد جيدًا، يعرف كيف يفكر لا لشـــيء سوى لكون حامد نفســـه من تلك النوعية، صحيح هو تاجر لكنه زبون أيضًا، زبون يقرر كل شـــيء بلحظة، كلمة (لو) لا يعرفها وكأنما يخاف التفكير في الأمر، في جزء من الثانية يقرر أن يشتري أو يغادر، دون ندم في الحالتين.

هي أيضًـــا لا تعرف ماذا تريد، ولا يشـــغلها حتى ذلك، تجول بعينيها في الدكان ولو ظهر القرار اشترت، ولو لم يظهر غادرت.. هذا زبون عليك أن تتجاهله، تتركه لنفســـه؛ فلو لمسته فقط لغادر، لذا ترك حامد الزبونة وانشـــغل بأفكاره، حامد يعرف أن الطريقة الوحيدة لإجبار زبونة من تلك النوعية على الشراء هي محاصرتها وإحراجها حتى تشـــتري لتخرج من هذا الموقف، يقف بينها وبين بـــاب الخروج، يفتح أمامها قطعًا كثيرة في جزء من الثانية قبل أن تدرك هي ماذا يفعل، لكن حامدًا الزبون يكره تلك الطريقة ويشعر برخصها، لذا اتبع الطريـــق الأول دون تفكير، وانتظر القرار في امتثال. وكان حامد وقت كُتبت عليه التجارة في الدكان، دخلها يمني نفسه بتحسين نوعيته كزبون، ويعجب أيما إعجاب بأولئك الزبائن الذين يعرفون ما يريدون ويحسنون تقديره، فينتصرون على التاجر مهما بلغت خبرته. على العمـــوم غادرت تلك الزبونة فقد تجاهلها حامد أكثر من اللازم.

أحـــداث اليوم كله حتى دخول الأم وابنتهـــا أجبرت حامد على التركيـــز في عملية البيع، ألا يغادر صغيرة أو كبيرة حتى لا يعود على نفســـه باللوم، فظل ينتقل بينهما في خفـــة، يُخرج القطعة تلو الأخرى، ويفند الملاحظة تلو الأخرى، حتى اقتطع أكثر من نصف مرتـــب الأم تقريبًا على غير نية منها، كان كل ما يجول بخاطرها أن تشتري قطعتين على الأكثر، لولا أن حامدًا في قمة يقظته، وكاد أن يأتي على مرتبها كاملًا لولا أن وقع حدث استثنائي بحق.

عطر تكلم، شـــعر أســـود فاحم دون غطاء، ثم يد حانية تهدهد النسيم مشيرة بالسلام، ثم عين كصندوق الدنيا ترى فيها الأعاجيب، ثم شـــفتان مكتنزتان بحمرة مُســـكرة، ثم ابتسامة من العين والشفة تُســـقط القلب، ثم جسد كمثري الشـــكل لدن مشدود في آن، كل هذا دفقـــة واحدة دخل الدكان.. لا.. لم يدخل، بل خُلق خلقًا في وســـط الدكان كمعجزة تتحقق قائلة:

- صباح الخير.

صباح كسر ملل ورتابة الأيام، صباح يجدد الأمل ويحيي نفسًا على وشك الزهد في الدنيا ومن الدنيا، صباح أدفع نفسي كل يوم إلى الدكان في انتظاره، صباح جاءني في أحلام يقظة كثيرة ودربت نفسي على استقباله إن جاء، صباح الفرصة التي أقدّرها حق قدرها، وأقطع يدي إن أفلتتها، إن لم يكن هذا صباح الخير فعلًا فأي صباح

قد يكون؟ هذا ما دار بعقل حامد وقالته عينه ولسانه يرد:

- صباح النور.

محبة حامد للنسوان لم تكن كأبيه، فهو لا يطيق الكلام بلا مناسبة ومعنى. يكره الحكايات والنم، يخنق الاستطراد الفارغ روحه، وهو في كل الأحوال علـــى حالتين، إما وديع هادئ كصوفي زهد الدنيا ومن متاعها لكن بسخرية عميقة، أو يأخذه الحماس فيضيق صدره بنفسه وأحبته على وجه الخصوص.

محبة للنسوان لم تنشأ عن شهوة للجنس، كفعل يقف أمامه حائرًا كما يقف الإنسان أمام بحر هائج، لولا كسر صغير من حبة (فياجرا) يسند بها نفسه ما خاضه -في واحد من أدق أسراره وأعمقها منزلة، لو استطاع أن يخبئه على نفسه لفعل- وحدها سارة بأمواجها الرائقة من كانت تشـــعل عقله، ولو ظل في بحرها عمرًا ما احتاج شـــيئًا، ولن لم يعدها كنسوان بنفس فكرته الآن، بل ظلت في مكانتها، على الرغم من تغير فهمه كامرأة عصرية حرة.

محبة للنســـوان نشأت من انهيار كل ما آمن به من قيم، وما ملأ عقله من مفاهيـــم، محبة توغلت في فراغ تركه الوطن، والنضال، والرفاق. نشأت بإلحاح البينة، ونمت مع ارتباك فكرته عن الحرية، نشأت وقت كان حامد التقدمي على شفا الهزيمة، وتأكدت بانتصار حامد الذكر الشـــرقي الفحل ابن مجتمعـــه، محبة ينتقم فيها من كل

فكرة ســـاذجة حمقاء ملكت عقله، وسعت إليها روحه، محبة حامد التاجر، تدوس حب حامد التقدمي بلا شفقة أو رحمة.

وقفت هند أمامـــه تمثل كل ما يتمناه التاجـــر، بفتنتها ولحمتها اللدنة الوضاءة، بوسامتها ونغزة على طرف شفتيها وقت ابتسمت، أنوثة على قدمين في خضوع مراوغ يشـــغل العقل، ويمني النفس بالســـيطرة، وقفت أمامه كأنما تقول له أنا أنثـــى وفقط، رُد للذكر داخلك روحه وأطلقه.

نجـــت الموظفة بنصف مرتبها، ودار الـــكلام بين هند وحامد، سألت عن المعلم وعرفت أن حامدًا ابنه، وحكت قصتها كاملة بنت مَن، أين كانت، متى جاءت... إلخ، حامد لم يع من كلامها ســـوى اســـمها، وأن هناك أساسًـــا متينًا لعلاقة تدوم، لم يشغله الكلام ولم يكثر منه، كل ما شـــغله ما قالته عينها، وما قال بعينه، تفاهم وصل حد الامتزاج.

مســـك كف يدها دون تردد ومس ذراعها بأنامله، برقة وحنو، فعـــل ذلك بحقه كذكر، وقبلته بخضوع أنثـــى، مكملة حكايتها كأن شـــيئًا لم يكن، ظـــل يتكلم بعينه، ويدور بأناملـــه بين مس وضغط خفيف، وهى ترد بعينها، ولســـانها يحكي كلامًا آخر.. جرى الأمر كحلم يقظة يتحقق.

***

"ما أنذر وأحقر ما يعرفه البشـــر من الكون، للرب طرقه يا بنى فاطمئـــن" هكذا حدّث الأب متياس ناصيف وأهله وجماعة غاضبة حولهم من كل اتجاه، بعدما أنهى اجتماعه مع صفوت باشـــا مأمور القسم، باركهم جميعًا في الساحة أمام القسم، وتكلم فيهم بنفس هادئ فيما يشـــبه الخطبة القصيرة، وإن كان بصـــوت أبانه الصمت من حولـــه، قال فيما معناه إننا الآن أمام كارثـــة وهي كافية، علينا ألا نزيدهـــا بالتجمهر وما قد ينجم عنه من مشـــكلات "قد يندس بينكم أيها الطيبون من يثير الفتن" على حد قوله، "وأن نترك الأمر لأهل التخصص"، ووعد بأن الكنيسة ستتابع الأمر ساعة بساعة.. وضع الصليب على جبين الســـت فادية زوجـــة عم ناصيف، وصلى من أجلها على أرض تطهـــرت بدموعها، ثم مضى بعد تأكده من خلو الساحة أمام القسم.

رأى ناصيف الشـــيخ وهبة وجماعة معه ميّز منهم مجدي تدخل القســـم بخطى واثقة إبان مغادرته الســـاحة، أفكار مشوشة متداخلة كثيرة شغلت رأسه طوال طريقه، وإن لم يستطع تحديد فكرة بعينها، أو رابـــط واضح بين ما جال برأســـه، أحاســـيس غامضة أججتها المخاوف، كما تُلبد الســـماء بسحب داكنة كثيرة وترعد دون مطر، في حالة الســـماء فإن تلك السحب ســـتمطر بلا شك، أما في حالة ناصيف فسماؤه لا أمل في مطرها، بيد أن تلك السحب الداكنة تثقله وتبطئ خطوه.

كان عليه أن يتمسك حتى يسند زوجة عمه بولس -قدس الله روحه- في بيتها، وهو ما زاد الأمر تعقيدًا على نفسه، دافع غريب يدعوه للاستسلام، يدفعه دفعًا كلما مر بجوار رصيف أن يجلس متحجبًا. وكانت فادية تكنس الشارع بعباءتها، اختلطت على وجهها دموع بتمخط بعفر الطريق، لو أفلت ناصيف ذراعه اليمنى من تحت إبطها لتدحرجت في الشارع "ثلاثة أيام بلا مريم.."

- أرأيتم مريم يا بناتي؟

وجهت سؤالها لأربع بنات فرحات يمشين أمامها، ففزعت الوسطى بعد أن التفتت إليها، وسحبت صديقاتها صارخة فيهن بكلام غير مفهوم، بينما استطردت الست فادية:

- تكاد تكون واحدة منكن، خرجت إلى الدرس ككل يوم، كما تخرجن إلى الدرس والمدرسة، ألا تعدن بعد الدرس؟ فلما لم تعد مريم؟ يا بناتي أجبن؟ يا يسوع أنا لا أفهم طرقك، أنت تفعص الآن.. الآن قلبي بيدك، إن لم تكن مشيئتك أن أطرق بابي الآن فتفتح لي مريم، ممسكة بكتابها لامعة العينين، يطل منها فرح العالم كما خرجت.. فمتى تكون مشيئتك.

ثم استطردت موجهة رأسها إلى السماء، وكانت البنات قد غادرن منذ سؤالها الأول في فزع:

- أيكون بمشيئتك أمر آخر!.. تكلم..!!؟

وسقطت مغشيًا عليها من يد ناصيف الذي جلس محتضنًا إياها، ومحققًا أمنيته بالانتحاب.

***

في يوم كأي يوم، وناصيف بالكرسي أمام دكانه، لمح الست فادية منكوشة الشعر، تحملق في الناس، بدت ذاهلة عن نفسها في تيه، تحافظ على اتزانها في المشي بمشقة، كأنما تدفعها يد مجهولة. لم يكن ناصيف ليهتم بها لولا حالتها، يحدث أن تعبر أمامه مباشرةً دون سلام في الأغلب، إلا لو جاءت تسأل عن شيء، أو حَمَلتَ الست شربات لناصيف أمانة يوصلها لها، أما حالة كتلك جعلته يفز عن كرسيه في ثانية ليهدئ من روعها ويطمئن عليها. على الرغم من عدم قدرتها على تمييز ناصيف في تلك الحالة، إلا أنها كانت كغريق يتعلق بقشة، تنظر في اتجاهه ولا تراه، لو أي شخص غير ناصيف أوقفها لحكت له واستنجدت به، راحت تحكي كأنما تكلم نفسها.

- مريم خرجت من الدرس منذ الواحدة ظهرًا ولم ترجع حتى الآن، لم أترك بابًا إلا وطرقته يا ابني، من صديقاتها إلى الأقارب إلى الجيران، ألم ترَ مريم؟ ألم تعبر أمامك اليوم؟ ماذا أفعل؟ كيف أرجع البيت بدونها؟

زلــزل الخبر كيــان ناصيف، ولم يعرف مــاذا يقول أو يفعل، بمجرد أن عرف بتغيب مريم أكدت له نفسه أن شيئًا كبيرًا يحدث، بدايــة مثالية لقصة من قصص قناة (الكرمــة).. بنت على أعتاب المراهقة، قبطية جميلة تختفي لتظهر كاشفةً النقاب عن وجهها بعد أسابيع أو أشهر أو سنة- معلنةً إسلامها، أو لا تظهر بالمرة، الست فادية بشــكلها الآن تقريبًا نموذج لأمهــات البنات اللاتي يعتصرن قلبك في تلك القناة وغيرها. ولو بقي بصيص أمل لظنه أن الشــر بعيد عنه، هو لا يعرف بالتحديد من أين جاء هذا الظن، لكنه شــبه يقين يُطمْئن به نفسه "كل هذه القصص تحدث في الصعيد".. طرد فكرة الذهاب إلى قســم الشرطة أو الكنيسة من رأسه حتى لا يكمل القصة في هذا الاتجاه، ويحافظ على أمله الهش في عودة مريم.

- سأصحبك إلى البيت الآن، قد تجيء مريم فلا تجد من يفتح لها الباب.

حمــل كلام ناصيف الســكينة إلى قلبها، تلك القشــة التي طال بحثها عنها، فذهبت معه طائعة وهي تحدث نفسها "ستجيء.. نعم.. أنتظرها بالبيت حتى تجيء".

قضى ناصيف ليلته ناســيًا النوم لأول مرة فــي عمره تقريبًا، يوم مات الحاج عبد اللــه نــام ناصيف بعمق، يوم باتت ماجدة في المستشفى بين الحياة والموت في ولادة ابنته ماري نام بعمق أيضًا،

مهما بلغت الكارثة التي حلت عليه من شدة لم تكن لتقف حائلًا بينه وبيـــن النوم، إلا أن تلك الليلة كانت مختلفـــة، لم يخطر النوم بباله من الأصل، قضى ليلته واقفًا على بُعد خطوتين من السرير الكبير حيث نامت بنتاه مـــاري وإيريني، يتأمل كـــف إيريني الصغيرة، إصبـــع بإصبع، أعجبه لون المانيكير في أظافرها ونزع ابتســـامة من روحه، ضفائرها، جبينها الذي كشف عنه الغطاء، وجه ماري وتلك الطمأنينة والراحة المرتســـمة عليه "أنا سبب تلك الطمأنينة، آه لو تعرفين كم أنـــا ضعيف وعاجز يا ابنتي".. لاحظ أنها كبرت جميلة كأمها، كشـــمس النهار التي فاجأته في تلك اللحظة فأحكم شد الستائر على الشباك. قول واحد سيطر على عقله، لا يعرف من قاله أو في أي مكان سمعه "رعب أكبر من هذا سوف يجيء".

في صباح اليوم التالي كانت الحكاية على لسان كل أقباط المدينة، وطالما وُجدت الحكاية وُجد الحكاءون، وطالما وُجد الحكاءون فُتح الباب للخيال على مصراعيه، يكمل الناقص منها على هوى النفس، وكل نفس ترى الناقص في مخاوفها وأملها الذاتي، من لسان إلى لسان غابت الحكاية الأم كطوبة ألقيتها فاستقرت في قاع بركة راكدة، مخلفة عنها موجات لا تنتهي دوائرها.

ناجي -أو ناجي بك- هو أول شـــخص فكر ناصيف أن يستنجد به، كان ناجي قد اســـتقر بالقاهرة منذ فتـــرة طويلة، يزور المدينة

في موســـم الانتخابات لأسبوع أو أكثر، ولا تراه إلا مع الانتخابات التالية، إلا أن كرهًا تأصل في نفســـه بالدورة الأخيرة بعد خسارته المذلة كما رآهـــا، دخل الانتخابات مطمئنًا لكونه مرشـــح الدولة، وخاض منافسة شرسة استخدم فيها كل نفوذه بعد أن حوّلها الدكتور مرشـــح الإخوان المســـلمين إلى معركة طائفية، وانشغلت المدينة بالدعايات وحرب الشائعات بين الدكتور وناجي بك. بعد أن صرف ناجي ما يقارب ربع ثروته للحفاظ على كرســـي مجلس الشـــعب، وبينما هو جالس في انتظار النتيجة، مطمئنًا لوعود كثيرة قُطعت له من الحزب الوطني، فوجئ باسم غريب لم يكن يعرف حتى بوجوده في الســـباق "وجيه من؟!.. هذا (البأف)!" لو نجح الدكتور مرشح الإخوان لعدها ناجي واحدة من معاركه الخاســـرة والسلام، أما وقد نجـــح هذا الرجل الغريـــب فتلك خديعة تأتيه مـــن بيته، من داخل الحزب نفسه، قرأ ناجي خسارته كرسالة تقول له انتهى دورك.

أوشك ناصيف أن يطلب من أمه مخاطبة ناجي، فقد كان يخشى الكلام معه، صحيح هو أخوه الأكبر، إلا أن اتســـاع الفارق بينهما في السن والمكانة خلق عائقًا كبيرًا لم ينجح ناصيف في تخطيه في المناسبات القليلة التي جمعتهما من قبل، لكنه تراجع بعد تفكير؛ فلو عرفت الست شربات باختفاء مريم لقضى عليها الخبر، خصوصًا وحالتها الصحية من ســـيئ لأســـوأ، وحالات الرعب والفزع التي كانت تنتابها على فترات متباعدة تسارعت وتيرتها، لا يمر أسبوع

دون أن تأخذها رعشـــة مخيفة، ويعلو صراخها لســـاعة أو أكثر، تطلـــب من ناصيف كل ليلة خمس أو ســـت مـــرات أن يلف حول البيت، ويُحكم إقفال البوابة بالقفل الكبير، ويؤكد ترابيس الباب، ولا تهـــدأ ثورتها حتى يفعل في كل مرة، مهما أكد لها أو حاول إقناعها بأنه فعل.

وجد ناصيف نفســـه أمام عجزه وقلة حيلتـــه مضطرًا في آخر الأمر إلى أن يكلم ناجي بنفسه.. "ابنة عمه.. وهو الكبير الآن" بهذا الكلام تشجع ناصيف، بدأ المهاتفة بسلام حار وسؤال عن الأحوال، وجـــاءه الرد مقتضبًا كأنما يقول لـــه ناجي: هات ما وراءك، حكى له ناصيف حكاية اختفاء مريم باضطراب شـــديد، يحكي فينســـى تفصيلة، فيعيد الحكي ذاكرًا تلك التفصيلة فتسقط أخرى حكاها في المرة الأولى فيذكرها في غير موضعها، وهكذا أخذه الاضطراب بيـــد أنه لم ينسَ أن يذكر مخاوفه كاملـــة، بينما ناجي على الجانب الآخر يلح عليه بالاختصار "والمطلوب مني على وجه التحديد؟!" كاد ناصيـــف أن يحكي الحكاية مرة أخـــرى، إلا أن ناجي قاطعه في تلك المرة بحـــدة: "كلما أهملت أم تربية بنتها.. كلما دارت فتاة على هواها.. كلما تاهت طفلة في الصعيد.. تتصلون بي!! أنا لست بشـــيخ حارة.. فلتذهب للبغاء أو تسلم أو تذهب للجحيم حتى.. مالي أنـــا!! أتريد مني أنا أن أقف بباب أراذل أنتان لأقول لهم لقد هربت بنت عمي فأتوني بها!! أسلمهم بيدي سكين ذبحي! إن موتي أقرب

من تلك الذلة وهذا العار".. حاول ناصيف باستماتة أن يؤكد على استقامة مريم "تكاد تكون قديسة" وأن يشرح حالة أمها، وظل في محاولاته حتى أغلق ناجي في واحدة منها الخط، ولم يبقَ لناصيف سوى صفير متقطع.

"إن ردك واحد من الحكايات الشريرة لاختفاء مريم، الرد في ذاته حكاية معلبة جاهزة تحركها الخسة والدناءة على الألسنة، ما بال تلك المدينة لا تخبز حكاية واحدة دون ذبح نسائها، آه يا مريم ما أكثر الأنطاع" هكذا رد ناصيف على صفير متقطع.

قضت الست فادية يومها الثاني بين الكنيسة وقسم الشرطة، بمصاحبة ناصيف مرات، ومرات أخرى بمصاحبة شباب الكنيسة. بالطبع ذُكر اسم الأستاذ ناجي، وكاد واحد من الشباب أن يكلمه بعد الحصول على رقمه من الأب متياس، في نفس اللحظة دخل ناصيف وعرف بنيته فسارع بإغلاق الخط قائلًا:

- الأستاذ ناجي لم ينم من ليلة أمس، من مجلس الشعب لمجلس الوزراء لمديرية الأمن في جولات مكوكية.

تخوف ناصيف من رد ناجي عليهم بنفس الخسة التي كلمه بها، فاندفع في هذا الفعل دون أن يعرف له سببًا، أخذه الحماس مؤكدًا الأمر وقت همّ الشباب بتقديم البلاغ إلى البلوكمين، نزع البلاغ بأنفة وحدة، محدثًا أمين الشرطة بتعالٍ شديد.

ـ أبلـــغ المأمور أن وفـــدًا من طرف ناجي بك عبـــد اللـه يريد لقاءه.

كان سيزيد جملة: "بشأن الأمر الذي تحدث فيه معك" لكنه خاف أن يسأل المأمور: أي أمر؟

هكذا وجد ناصيف نفســـه في صدارة المشهد، حتى إن المأمور وجّـــه جل كلامه له، كلام مـــن نوعية "البنت ابنتي.. هي شـــغلنا الشـــاغل فاطمئن.. إنما نسهر ونتعب لراحتكم" صحيح أن ناصيف والشباب معه وصل مســـامعهم من المخبرين والأمناء كلام ساخر على شـــاكلة: "ما دمتم رجالًا بهذا الشكل احكموا بنتكم أولًا.. أين كنتم وقت هربت.. فتشوا عمن سرح بعقلها.. مات من اختشى" إلا أن كلام المأمور ترك في أنفسهم الأثر الأكبر، وبالأخص ناصيف الذي أحس بذاته، وأخذته نشـــوة غامضة علـــى الرغم مما يعتمل بنفسه.

مر اليوم الثاني في اجتماعـــات ولت وعجن، من قال إنه رآها في الشارع الفلاني، ومن أكد وجودها في المدينة الفلانية، ومن أكد أن الشـــيخ العلاني وجماعته اختطفوها، ومن حكت عن الســـت أم فلان بشفاعة القديس الأنبا يؤانس عثرت على ابنتها بعد أن يئست، وكانت تصوم كل أســـبوع ثلاثة أيام صومًا انقطاعيًا، إلى أن ظهر لها ملاك الرب مشـــيرًا على مدرســـة الأقباط بالأقصر حيث قبر

الأنبا الشهيد، وما إن ذهبت حتى استجاب لها بندهة واحدة، ولم تعن لن تستشهد بالإنجيل (**وَيَكُونُ فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ أَنِّي أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ، فَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبَنَاتُكُمْ، وَيَرَى شَبَابُكُم رُؤًى وَيَحْلُمُ شُيُوخُكُم أَحْلاَمًا**)(*) هي تقصد تلك الآية على العموم إن لم تقها بدقة، كلمة من أولها وكلمتين عن الأحلام والنبوءات. المهم أن اليوم الثاني انقضى عن نتيجتين، واحدة منهما هي هذا الكم من الحكايات التي لا يعلم غير الرب مداها وعددها، والثانية وقفة احتجاجية نظمها شباب الكنيسة، ودُعي لها أمام قسم الشرطة في صباح اليوم الثالث.

***

بدا مشهد الأمن أمام ساحة القسم مروعًا، بالخوذات والعصي منتظمون في صفوف، ما إن وصل ناصيف وشباب الكنيسة حتى تشكلت الصفوف كردونًا يحيط بهم من الجهات الأربع، لو تُرِك ناصيف لعقله ثانية لجرى كأن كلبًا وراءه، بيد أنه وجد نفسه مدفوعًا دون تفكير من أول الحكاية حتى آخرها، كلما عُقدت النية على أمر وُجهت الأنظار إليه في انتظار التخطيط والمشورة، فهو أقرب الرجال إلى مريم وأكبر الشباب سنًا، ثم وهو الأهم أخو الأستاذ ناجي المخلص وإن لم يظهر، كان بمثابة القائد لأي حراك، ومسألة

(*) أخر الأيام: (أع 2 : 17).

القائد تلك كانت تنتزع ضحكات عاليةَ قصيرة بين السخرية والدهشة من نفس ناصيف، على فجأة ودون إرادة منه، فقد قضى عمرًا لا يقيم وزنًا لأى موضوع مهما بلغت جديته، يزوغ من المشاكل بموهبة كأنما تلك آيته، حتى إن ناجي قديمًا في واحدة من لحظات صفائه النادرة سخر منه قائلًا: "حين تموت ستُجمع عظامك في قبر، وكل من أراد الهرب من مشكلة أتى طالبًا شفاعتك، ستكون قديس الزوغان".

لذلك ما إن أنهى الأب متياس خطبته القصيرة حتى انصرف الحشد -وهذا هو حال قائدهم- من فوره بضمير مستريح، يشعر كل فرد منهم بأنه أدى ما عليه من واجب وأكثر، في وقفة استمرت حوالى أربع ساعات، بدت لناصيف دهرًا.

قدر صفوت باشا بحسه الأمني أن تلك الوقفة ستنتهى قبل ذلك بساعة أو أكثر، لذا استدعى الشيخ وهبة وجماعته في هذا التوقيت، هو لم يستدعِهم بالمعنى المفهوم لاستدعاء الشرطة إنما هو طلب مقابلتهم إن شئت الدقة، لم يرغب صفوت باشا أن يلتقي الجمعان، حتى إنه وقت طلب الأب متياس لإنهاء تلك الوقفة الاحتجاجية شدد عليه بقوله: "إن لم تنجح في إخلاء الساحة خلال عشر دقائق -قرب موعد وصول الشيخ وهبة- سأفضها بالقوة وليكن ما يكون" لذا بدا على الأب متياس التوتر والقلق على الرغم من صوته الهادئ، كان هدوء الرجاء وليس هدوء الاطمئنان.

كان دخول الشـــيخ وهبة وجماعته القســـم دخولًا هادئًا مطمئنًا، تشـــم فيه رائحة الاســـتعراض من مهل الخطى وهز الأكتاف، من الجائز أن يكون هذا ســـبب انتباه ناصيـــف وجماعة غير قليلة من الشـــباب معه إبان مغادرتهم الساحة للشيخ ورفاقه، ومن الجائز أن يكون سببا آخر، غير أن مشهد الدخول ترك انطباعات قوية لديهم بأن للشـــيخ وجماعته صلة أكيدة باختفاء مريم، صحيح لم يوَصّف أحد منهم تلك الصلة أو يوضح مداها، إلا أن هذا الإحساس قد نشأ واستقر.

***

لا يمكن بحال وصف كآبة وبرودة قسم الشرطة، بممراته الضيقة، ومكاتبـــه المعدنية، لُطع بصمات الإبهام تغطي الحوائط، تكتشـــف اللـــون الرصاصي لحوائطه بعد تدقيق، صوت الســـب والصراخ والأكف الغليظة الضخمة تستقبلك في طابقه الأول. وجوه مشمئزة في تعالٍ تمد يدهـــا بجوفك لتقلب عليك مخاوفك كاملة، تعرف أين يبجر الخوف فيبجه فيك بنظرة. لم يبدُ على الشيخ وهبة أن شيئًا مما سبق نال من ثباته ورباطة جأشه، بينما وجل مجدي وأخذته رعشة خفيفة لم يستطع الســـيطرة عليها رغم محاولته أكثر من مرة، كما أنه لم يعتَد المشي بالجلباب القصير والسروال بعد، ينفذ الهواء إليه

من كل اتجاه فتزيد الرعشـــة، احتكاك عضوه بوركيه أثناء المشي خلط الخوف باستثارة "لا وقتها.. ولا مكانها".. يقف فجأة لا يعرف ماذا يفعل، ثم يواصل المشي منفوعًا بنظرات الشيخ ورفاقه، تمنى لو استطاع مد يده لعضوه فيعدل من وضعه، وخطر بباله أن يذهب دورة المياه لكنه خاف المشـــي في هذا المكان وحيدًا، فاندس وسط الشيخ ورفاقه كطفل يحتمي بأهله، بعد أن كان يمشي بجوار الشيخ كتفًا بكتف.

كمـــا أن لمجدي ذكريات مخيفة مـــع الجلباب، في طفولته، ظل يلح على الشـــيخ عبد الجليل أن يشـــتري له جلبابًا أو عباءة ليتمثل بإخوته الكبار، وكان الشـــيخ دائم الرفض فقد أراد لمجدي أن يكون ابن المدينة في كل شيء حتى بملبسه، يوم كان عمره خمس سنوات فاجأه الشيخ وفصل له جلبابًا أبيض بياقة وثلاثة أزرار على الصدر، وبينما هو في غمـــرة فرحه بالجلباب يضـــرب الهواء بخيزرانته كخولي، ينعم بحرية غريبة تسببت فيها الست أم ناصر حين نسيت أن تلبســـه لباسًـــا داخليًا -أو هكذا تصور- إذا بعم ســـعد يغدر به، وبحركة واحدة يوثق بيد ذراعيه خلف ظهره، وباليد الأخرى يحكم السيطرة على كتفيه، وحلاق الصحة يفتح رجل مجدي واضعًا إياها تحت ركبتيه الثقيلتين، ويُخرج موسي يختنه به، في مشهد لم يحتمله الشـــيخ عبد الجليل ولا الست أم ناصر، كنت لتسمع صوت بكائهما مختلطًا بصراخ مجدي في الغرفة الأخرى وأنت تمشـــي بالشارع،

وكأنما حدث ذلك بالأمس، كلما أغمض عينيه رأى بُطع الدم تغطي الجلباب الأبيض، وشيئًا ملفوفًا بشاش غطاه اللون البني الباهت بدا كطوبة، احتفظ به الشيخ عبد الجليل في المكتبة بجوار كتبه.

مجدي ينظر للشـــيخ وهبة وثباته بإكبار شـــديد "يمشـــي كأنما يدخل بيته"، أما الشـــيخ وهبة فقد اصطحبه معه بعد أن أحس بقدرة مجدي على الانتقال إلى المرحلة التالية، مرحلة ما بعد الاجتماعات بالجامع الكبير، من جهة يســـتعرض أمامه قوة ومتانة نفوذه، ومن جهة أخرى يعرفه بصفوت باشـــا ويقدمه له كواحد من رجاله. كان الشـــيخ يعد مجدي كابن له، فبقدر ما تزوج لم يرزقه اللـه بابن من صلبه. زوّج مجدي من ابنة أخته المسكينة وعائلته الوحيدة، وعمل على تجهيزه ليكون ذراعه اليمنى وعينه على الجماعة، وإن عمل ذلك على مهل لإدراكه طبيعة مجدي وعناده. ثقة الشيخ في مجدي لم تكن بسبب شخص مجدي، فالشـــيخ يعرف جيدًا تهوره وخفته، إنما نبعت تلك الثقة من قدرة الشيخ غير المحدودة على التأثير عليه وبالتجربة، كان يقول لنفسه "لو أردت منه أن يلقي بنفسه في النار لجعلته يفعل دون نقاش"، كما أن الشـــيخ يرى فيه على الرغم من كل مشـــاكله شيئًا يلمع، جوهرة مدفونة ما على الشيخ إلا أن يجلي التراب عنها فتتفجر نورًا يأخذ الأبصار، وهذا الشـــيء هو طموح مجدي اللا متناهـــي، طموحه في عمل كبير يتكلم عنه الناس "هذا طموح قائد، وقت كان في القيادة ســـيصدق نفسه فيصدقه الناس"..

صحيح أن الشيخ ساءه اصفرار وجه مجدي والرعشة التي تملكته وتخبطه في المشي والكلام، بيد أنه طمأن نفسه "تلك المرة الأولى التي يدخل فيها قسم شرطة بحياته، من منا لم يكن كذلك؟"

دخل الشيخ وهبة وجماعته مكتب صفوت باشا دخولًا استعراضيًا عن حق، فما إن خطا خطوتين أو أكثر داخل المكتب حتى أشار من نفسه إلى جماعته بالجلوس، وبقي واقفًا أمام صفوت باشا الجالس وراء مكتبه يعد حبات السبحة، فمد كف يده بالسلام وما إن سلم صفوت باشا حتى لحقه بالكف الأخرى يربت بها على كتفه في انحناءة مسرحية، ولولا فصل بينهما المكتب لاحتضنه، وكان ينوي ذلك بالفعل لكن المسافة بينهما حالت دون ذلك، وبادره قائلا:

- السلام على من أنار الحج لبيت الله وجهه، وزان التسبيح خلقه، واختصه الله بمحبة خلقه وقضاء حوائجهم، كيف حالك يا صفوت باشا.

- بخير يا مولانا، أهلًا بك.

همّ صفوت باشا بالدخول مباشرةً في موضوع الاستدعاء، غير أن الشيخ وهبة استطرد:

- الشيخ منذر حمّلني السلام، وهو أمانة كما تعرف.

كان الشيخ لا ينفك ينظر منذ دخوله إلى الساعة (الرولكس) في يد صفوت باشا. ولتلك الساعة حكاية، فقد أهداها له الشيخ منذر

في حجته الأخيرة؛ إعجابًا منه بتقوى وورع صفوت باشـــا، وكان سـبب المعرفة لواء شرطة يحج مع الباشـــا، صديق للشيخ منذر، فقدم الشـــيخ إليه قائلًا: "هذا الشيخ منذر كان أقرب الناس إلى حجة الإسلام الشيخ ابن بازْ رحمه اللـه"، وقدم صفوت باشا للشيخ قائلًا: "هـذا عبد اللـه زميلي وصديقي صفوت، رجل لا تفارق السـبحة يده، يلتمس طريقًا إلى اللـه في كل أفعاله".

- أطال اللـه عمر الشيخ منذر، أبلغه منى السلام.

- يصل إن شاء اللـه.

- تفضل بالجلوس يا مولانا.

عنـد هذا الحد هدأ الشـــيخ وهبة وجلس فيما يشـــبه الندية، فقد أطمأن أن الرســـالة وصلت صفوت باشـــا، ما إن جلس حتى بادره المأمور بالسؤال:

- أين مريم يا مولانا؟!

- أما وقد سألت مباشرةً فسأجيبك بنفس فعلك، لو كنت أنت واحدًا من الجلادين، فسـدة القلب، ﴿الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(*)، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(**)، كنت سـأجيبك كالآتي: ما أنا إلا عبد من

(*) سورة المائدة، الآية: 33.
(**) سورة التوبة، الآية: 32.

عباد اللـه، يقيم شـــعائره ويحافظ عليهـــا، وأدعو إلى اللـه بالحكمة والموعظة الحسنة، أنا -أشار إلى جماعته- وجماعة من المخلصين، مالنا بمريم أو غيرها، وكنت ســـتصدقني.. أو لا تصدقني لا يفرق الأمـــر في كثير، فيـــدك خاوية بلا دليل واحـــد، ولو تعرضت لي سيشـــيع في المدينة أنك تحارب دين اللـــه والداعين الودعاء إليه، ولو تصورت أن ما جاء به مخبروك ذا قيمة، أحب أن أقول لك لو كانـــت لي رغبة ألا يعرف مخلوق عن الأمر شـــيئًا ما عرفت أنت أو مخبروك شيئًا.

مد يده لكوب الماء أمامه وارتشف منه بهدوء، ثم استطرد وقد أعاد رسم ابتسامته على وجهه:

- أما وأنك رجل من رجال اللـه، حججت بيته وعرفت طريقه، وأحسبك على الخير ولا أزكيك على اللـه معاذ اللـه، فقد جاءت ابنتنا تريد الدخول في دين اللـه.

قاطعه صفوت باشا:

- جاءت!! جاءت بإرادتها؟

فرد الشيخ بحدة:

- جاءت كيفما اتفق يا سعادة المأمور، ماذا تظن أني فاعل بها!؟ أعيدها إلى الكفر والعياذ باللـه؟ إنما نفعل ذلك لوجه اللـه لا نريد جزاءً ولا شكورًا.

- وامها؟! والكنيسة؟! لقد رأيت بأم عينك ما حدث في ساحة القسم منذ قليل.

- لا ولايــة لأمهــا عليها، من أنــا حتى أفتي رجــلًا بعلمك؟! فلا ولاية لكافر على مســلم، الإسلام دين يعلو ولا يعلى عليه، أما ما حدث في ســاحة القسم، فلو أردت عشــرين مظاهرة في اليوم لأتيتك بها.

فقاطعه صفوت باشا مرة أخرى بحدة:

- عن أي ولاية تتكلم؟!

- يا سعادة المأمور أنت لا تسمعني جيدًا، أقول لك لقد أتت إلينا ابنتنا على نية الدخول في دين اللـه، فأسلمت وتلت الشهادتين.

- أسلمت!! في ثلاثة أيام!

- وفي ثلاث دقائق، وستجيء بنفسها لتتلو الشهادة أمامك، ألا تثق بهداية اللـه ونوره يا سعادة المأمور؟ سأريك شيئًا لتعرف أي ضلال كانت تعيش تلك المسكينة حتى هداها اللـه إلينا..

مدّ الشــيخ يده في جيب الجلبــاب وأخرج مجموعة من الصور العاريــة لمريــم بأوضاع مختلفــة، عرضها على صفوت باشــا مستطردًا:

- أرأيت! اي عهر كانت تعيش فيه تلك المسكينة! لكن هداية اللـه تمحو ما قبلها، والشيخ أسامة -أشار إلى شاب من الجالسين- ابننا

البار قد غفر لها، وسيعقد عليها بإذ..

فتكلم المأمور بحرارة كأنما أفاق لتوه، وبدا أنه لم يسمع ما قاله الشيخ وهبة، فقد كان يأكل الصور بعينيه في نهم:

- كيف أتيت بتلك الصور!! تكلم!

رد الشيخ بتحدٍّ:

- أقولها ثانيةً جاءت كيفما اتفق، تلك سفاسف الأمور، أنترك الأصل وجلاله وقد هدى الله إنسانًا إلى طريق الحق وأتم عليه نوره، ونتمسك بقشور لا أصل لها؟ أقول لك إن الشيخ أسامة قد تأكد من توبتها وغفر لها وسيعقد عليها ما إن تتم السن، وفي تلك الصور جرح له، والله ما أريتك تلك الصور إلا ليطمئن قلبك.

رد المأمور ساخرًا:

- عظم الله أجرك يا شيخ أسامة، وأجرك يا مولانا، أرى أنك تفني نفسك في طريق الحق يا مولانا وصحتك لم تعد تحتمل فرفقًا بنفسك.

ثم رفع يده اليسرى لتبين الساعة واستطرد:

- أبلغ الشيخ منذر أن سلامه لم يصل كاملًا، وتلك أمانة كما قلت، أم ترى غير ذلك؟

- بل هو ذلك وأكثر يا سعادة المأمور، أدام الله عليك بصيرتك، ومتعك بفضله ونعمه.

ـ نورت يا مولانا.

ـ إنمـــا هو نور اللـــه في معية عبـــاده المخلصين يا ســـعادة المأمور.

***

"هـــذا الصوت ينغص عليّ حياتي.. أســـمعه بوضوح.. لو كان صوتًا واحدًا حتـــى بدلًا من الإذاعات المتداخلة.. دوشـــة تهد في جسدي.. ما هذا؟ أغانٍ؟! أستغفر اللـه العظيم، هذا كفر.. من يعذبني بهذا الراديو، وكيف يهتدي إنســـان لطريقة كتلك في التعذيب؟ لا.. هذا ليس بإنســـان.. إنه كما قال أبي الشـــيخ، هذا شيطان لعين يريد أن يشـــغلني عن كتـــاب اللـه.. لا أكاد أعي حرفًـــا مما أقرأ.. يقرأ لساني، وعقلي يستمع لهذا الراديو اللعين.. وهذا الصفير.. لا ليس بصفير.. صوت موتور؟!.. نعم راديو عربة تمشـــي مسرعة.. هل تمشـــي العربة مسرعة؟!.. نعم مســـرعة، فلو لم تكن مسرعة من أين يأتي هذا الصفير إذن؟.. أأصدق الطبيب؟ أتخيل؟؟ أنا أســـمعه بوضـــوح يا أحمق.. لو كنت أتخيل لرأيـــت الراديو.. فكيف أتخيل كل هذه الأصوات لرجال ونســـاء وأطفال ومسلسلات.. والرعب وقت تداخل إذاعة القـــرآن الكريم مع إذاعة الأغاني.. كيف أتخيل كل هذه الأصوات يا أحمق ولا أســـتطيع تخيل مربع بلاستيكي لو

حتى ترانزستور حقير.. لكن لو رأيت الترانزستور لأتيت عليه بالشاكوش وأنهيت هذا الصوت.. يا ربي.. لو تقف هذه العربة وتضبط موجاته على إذاعة القرآن الكريم لاحتملته دون شكوى.. لكن كيف يُضبط على إذاعة القرآن الكريم والشيطان يريد بالأصل أن يشغلني عنه؟ شيطان لعين يسكن الجدران.. أنا لا أتخيل شيئًا.. أنا أسمع بوضوح.. هذا صوت راديو يأتي من عربة مسرعة يخرج من الجدران.. أنا لا أشك بشيء.. هب أني أشك، فكيف أشك بشيء غير موجود بالأصل؟! يجب أن يكون هذا الشيء موجودًا ما دمت أشك بوجوده".

دخل الشيخ وهبة على ابنة أخته الجالسة في ركن المعرض وهي تقرأ في كتاب الله غارقة بدمعها، جفلت لوهلة فأسدلت النقاب قبل تأكدها من شخص الشيخ، فكثيرًا ما يدخل المعرض صبيان المقلة ليطمئنوا عليها، أو لينظفوا المعرض، أو مع زبون بأمر من الشيخ في ظل غياب مجدي. كشفت زينب النقاب عن وجهها بعد أن عرفت الشيخ، فبان الندى على كامل استدارته وفوق أرنبة أنفها من أثر النقاب، زرقة يميز لونها أسفل جفنيها في مساحة حددها اللون البنى الباهت أشبه بنصف دائرة تحت كل عين، ساعد على وضوح تلك الألوان بياض وجهها الشاهق، لو تطلعتِ إليها فلا يصح هنا تطلعتَ، فلا ينكشف هذا الوجه إلا للنساء، غير مجدي والشيخ وهبة لم يرَ رجل قط وجه زينب، حتى الشيخ وهبة لم يرَ

منذ سنين غير استدارته إثر رفع النقاب عنه، أقول لو تطلعتِ إليها لأدهشتكِ إن نطقت وبانت منها بادرة حياة، غير تشنج بسيط كل بضع ثوانٍ، فهذا الوجه شديد الحياد بلا تعبير واحد، لا يليق إلا بجثة. على طولها تلبس ملحفة أشبه بخيمة لتستر جسدًا هو في حقيقة الأمر جميل، مشدود ومتناسق كما أكدت أكثر من جارة قبل زواجها بمجدي، على الرغم من صعوبة -إن لم تكن استحالة- الوصول إلى معلومة مؤكدة لما آل إليه هذا الجسد الآن؛ فمنذ أكثر من سنتين لم تخرج لهن بغير ملحفتها، غير أن الجارات يتحسرن على ما أصاب وجهها الصبوح الشهي وعينيها الواسعتين، غلبة الظن أن ما أصاب الوجه أصاب الجسد.

تقول الواحدة منهن: سأذهب إلى زينب المسكينة، أو: زينب المسكينة قالت كذا، أو تنصح جارة لها: هاتي زينب المسكينة تحفّظ أولادك القرآن، صار اسمها تقريبًا زينب المسكينة، هناك اتفاق على كونها مسكينة، هذا شعور وتوصيف الشيخ وهبة أيضًا، كانت تشق قلبه وقت رآها، يستحيل أمامها هذا الجبل بكل جلافته وحمأته إلى قلب خالص وروح شفافة ناعمة، لم يترك الشيخ رقية عرفها أو سمع عنها إلا وتلاها عليها، لم يترك شيخًا أو شيخة تعالج بالقرآن حتى زارها، مشى بها طريق العلاج من المس والسحر كاملًا في مصر والعراق واليمن والسعودية وقطر، وصل الأمر أن غالط عقيدته وذهب بها إلى طبيب للأمراض النفسية والعصبية بالقاهرة،

وآخر بالإســكندرية، بيد أنه لم يكمل هذا الطريق، لغصة تكبر في نفسه كلما مشى فيه.

كان الشيخ يتأملها بعين رقراقة قبل أن تجفل منه وتسدل النقاب وترفعه بخمس دقائق على الأقل، تختلط المحبة بالشفقة بعجز يضني روحه، يأكله الندم كلما رأى تيبس وجهها "لو لم أضربها" وكلما زخت عيناها الدموع "لو تركتها تتزوج بمن تحب" يجلد ذاته في حضرتها "لو تركتها كباقي البنات تلعب وتذهب إلى المدرسة".. "لو.. لو..".

يحدث أن يتملكه شــعور بملازمتها في محاولة منه لتعويض ما فــات "والله لو طلبتِ لبن العصفــور".. أن يخر على قدميها طلبًا للســماح، لكن هيهات لهذا الوجه أن يسامح أو يكره حتى.. يحدث أيضًــا أن يملص منها لثلاثة أيام وأكثر، يخاف أن يتذكرها ويتذكر معها ضعفه وعجزه وندمه، يأمر صبيانه بتلبية طلباتها كافة، وليس بينهم محرم، لكن ماذا يفعل؟ الضرورات تبيح المحظورات، وتلك ضرورة هو أدرى الناس بها.

لم يكن الشيخ بحاجة إلى وجود زينب أو غيرها بالمعرض، فقد كان يديره ومجدي بنفســه موجود، وغيــاب مجدي لا يفرق كثيرًا عن وجوده، فالشيخ من يأتي بالزبائن ويبيع لهم، ويتسوق بعلاقاته ويقوم صبيانه بالشــيل والحط والتحميل إلى آخره، كما أنها ليست

المرة الأولى التي يغيب فيها مجدي لشـــهر أو أكثر، وفي كل مرة كان الشـــيخ يفتح المعرض ويبيع ويشتري ويدير الأمر على أحسن ما يكون. لكن في غياب مجدي الأخير طرأت فكرة برأس الشـــيخ ورقت له، لو انشـــغلت زينب بالمعرض وأحواله وخالطت الناس بالسوق بدلًا من جلوسها بين أربعة جدران، قد تخرج مما هي فيه.. بدت له الفكرة فـــي أول الأمر كخطة ناجحة، حتى إن عينيه لمعتا وقت خضـــرت ببنته، غير أن المســـكينة لا تغادر ركن المعرض، وكتاب الله مفتوح على حجرها، ساهمة تسيل عينها من يوم جاءت وحتـــى لحظة وقوفه أمامها متأملًا، وبعد أن كان الذنب بعيدًا يدفعه لو جـــنب إليه مرتين باليوم، جاء بالذنب في مجاله، ووضع بنفســـه حجرًا بطريقه يتعثر به كلما مشى.

مشكلة الشيخ الحقيقية في غياب مجدي هي ما يمثله كحائط بين الشيخ وذنبه، كأنما وقت زوجه الشيخ من زينب ألقى إلى مجدي بذنبه ليحمله عنه. صحيح أن زينب لم تكن وصلت لتلك الحالة بعد، حتى إنها كانت تضحك وتقف أمام المرآة فرحة بنفسها، إلا أن شعور الشيخ بالذنب كان قد نشأ، وإن لم تكن حالتها سببه الرئيسي، إنما تأخر سنها في الزواج وذبولها يومًا بعد يوم.

وصل الأمر بالشـــيخ بعدما جرب مواجهة ذنبـــه وجهًا لوجه، وكان قد نســـي أثـــره، بل لو قارن أثره الفائت بما يشـــعر به الآن

لتمنى أن ينعم بالفائت عمرًا - وصل به الأمر أن راجع نفســه فيما انتوى لمجدي وكان ســبب غيابه، بعد كل ما بذله الشيخ وجماعته من إعداد نفســي وتدريب وتصعيد من مرحلة لمرحلة، لكن القرار لم يكن بيده كاملًا.

على الرغم من ارتياح ناصيف لغياب مجدي المتكرر في الفترة الأخيرة، فإنه شارك حامدًا فضوله، فمنذ أن اجتمع ثلاثتهم في السوق لم يغب أحدهم يومًا إلا وفسر وأفاض في سبب الغياب، على عكس طبع مجدي الجديد، يتهرب من السؤال عن سبب غيابه، بالطبع ليس الأمر كاستجواب أو شيء من هذا القبيل، إنما بحق الصداقة والعشرة، سؤال ظاهره الطمأنة وباطنه الفضول، بالأخص وغياب مجدي قد يطول لشهر أو أكثر، فيعود بعدها وقد تغير شيء فيه، لم يصل حامد بعد جهد وطول فكر لهذا الشيء، غير أنه على يقين بأن شيئًا تغير وشيئًا كبيرًا. في كل مرة يغيب ويعود، يشعر حامد وكأنه يريد أن يقول شيئًا بتصرفاته، بنظرة التعالي وقد ازدادت عمقًا، بحركة يدية المستهترة كلما سُئل في أي أمر، صحيح أن كل تصرفات مجدي السابقة تشي بتقديره الزائد لنفسه واحتقار عميق لما دونها، وكأنما يقول لا أحد يستحق أن ينال شرف الجلوس إليّ، لكنه كان يفعل ذلك بخفة مضحكة، وطيبة تدعو إلى الإشفاق، أما الآن فإن ثقلًا يصاحب وجوده، تصلب ليس غريبًا عليه لكن في كل

مرة يزداد تمكنًا من روحه وجسده، ولولا حسن نية حامد لقال إن أرواحًا حاقدة شريرة تتطاير من عينيه وقت شرد بفكره.

ناصيف منذ لمح مجدي داخلًا القسم مع الشيخ وهبة وجماعته وهو يضرب أخماسًا في أسداس، لم تعد عيناه ترى مجدي كما كانت تراه من قبل، على الرغم من التوتر الناشئ بينهما قبلها، ناصيف نفسه تغير، في رؤية مجدي وفقط سبب كافٍ لكآبة تخيم على روحه، وخوف من المجهول يسيطر عليه، حتى إن تعبير "أرواح حاقدة شريرة تتطاير من عينيه" هو من صكه وقت كان حامد يكلمه عن قلقه من التغير الذي اعترى مجدي، وأضاف ناصيف:

- التعود وفقط هو سبب ما توهمنا في مجدي من سذاجة وطيبة، فانظر إلى نفسك يا حامد ما إن غاب وعاد حتى رأيته على حقيقته، تلك حقيقته صَدقَ، عليك أن تبتعد خطوتين أو أكثر حتى تتمكن من الرؤية المنصفة، إلا فانتظر أن تدهسك الحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها يا صديقي.

اندهش حامد من كلام ناصيف فلم يكن ينتظر منه ردًا، كان فقط يلقي بأفكار غير مترابطة أمامه شغلًا للوقت، ويبادله ناصيف هذا الفعل حتى يصلا إلى موضوع يثير فيهما الحماس والأخذ والرد. سبب الدهشة أن يكون هذا الموضوع هو مجدي، ومن يختار الوقوف عنده وتفصيله هو ناصيف، بعدما تجنبه وتجنب

حتى الإشارة إليه منذ فترة ليست بالقصيرة.

يوم كان مجدي بالقسم، لبث بمعرضه بأمر من الشيخ وهبة، يراقب دكان حامد في انتظار أن يأتيه ناصيف، وما إن اجتمعا حتى تسلل إليهما تحسبًا لمغادرة ناصيف إن رآه، وكأنما خلقه الله أمامهما فجأة. حكى دون مقدمات أو سؤال أن الشيخ وهبة سرقه واحد من صبيانه، فذهب إلى قسم الشرطة ليحرر محضرًا بالواقعة ويثبت المسروقات، وجاء بمجدي كشاهد، وبينما هم بالطريق كان الخبر قد وصل أهل صبيه، فاستنجدوا بنفر من جماعة الشيخ على صلة طيبة بهم للوساطة، غير أن الشيخ أبدى تعنتًا وأصر على الذهاب إلى القسم. ثم قهقه وسط ابتسامات حامد المرتبكة ووجوم ناصيف قائلًا:

- الناس في محايلة والشـــيخ في طريقه. حتى وصلنا باب القسم جماعـــة كبيرة، أقســـم أن منهم من كان يتكلـــم دون أن يعرف ما الموضوع أصلًا.

وأكمل موجهًا جل كلامه لناصيف كيف أنهم استغلوا طيبة الشيخ ورقة قلبه حتى تنـــازل عن حقه وعفا عن صبيه، وأن اليوم ضاع بلا طائل.

بينما ظل حامد يبتسم في بلاهة دون أن يعرف ما المضحك في تلك القصة بهذا الشكل "هذا مجدي ليس عليه عتب"، كان ناصيف

يحاول أن يبدو غير مهتم، وكاد أن ينجح في مسعاه لولا أن غيظًا تملكه دون إرادة منه، لم يكن غضبًا كان غيظًا، لا يعرف سببه الحقيقي، يجز على أسنانه كلما استطرد مجدي في حكايته، لو رأيته في لحظة كتلك لحسبته يعاني من وجع بضرسه، حتى إن هذا بالفعل ما حسبه حامد.

صحيح أن مجدي لم يفهم حال ناصيف، كما لم يفهم أمر الشيخ وهبة أن يحكي تلك القصة له، إلا أنه كان يريد لمهمته أن تكتمل على أحسن وجه، فجود من عنده سائلًا ناصيف:

- لقد خُيلت بك في محيط القسم، أمررت مصادفة أم كنت تقصد القسم في مشكلة لا سمح الله؟

غير أن ناصيف بما استبد به من غيظ لم يكن ليريح مجدي بإجابة شافية..

- أنا لم أغادر الدكان اليوم من الأصل حتى أكون بأي مكان.

رد ناصيف، وحامد ينظر له بذهول دون التخلي عن ابتسامته البلهاء، فبدت تعبيرات وجهه نموذجًا للسذاجة.

***

الغرفة بدت نظيفة مرتبة في أول دخولها، لكن ما إن استقرت على الكنبة العربي بجوار السرير حتى رأتها على حقيقتها،

تضربها الفوضـــى من كل اتجاه، وما إن أُغلــق الباب حتى بدت أشبه بالوكر منه إلى الغرفة. هي ليست بالغرفة في واقع الحال، بل جزء تم اقتطاعه مــن مخزن كبير، لا يمكن تحديد محتوياته بدقة، من الممكن أن تقول إن به من كل شـــيء شيئًا، إطارات لجرارات، مقطورة قديمة، أجولة، شــماعات، ميزان بسكول، شكائر أسمنت وجير، مانيكانات ســقط طلاؤها أو قُطعت أوصالها، ألواح زجاج مختلفة الأحجام، أرفف، مشــنات كبيرة على شكل نجمة أو دائرة، كراسٍ خوص وأخرى خشــبية، وطاولات مهشمة كونت فوضاها شكلًا هرميًا، ملاءات على الأرض، هذا غير ما علق على جدرانه من أدوات غريبة الشكل والاستعمال.

اقتُطعــت الغرفة من زاويته الداخلية وأُحســن طلاء جدرانها، ويبدو أن هنــدًا كونت انطباعها الأول عــن ترتيبها ونظافتها من مقارنــة حالها بحال المخــزن، فوقت دخلته تملكهــا الرعب من اتساعه، وتذكرت كل مشــاهد الخطف في الأفلام العربي القديمة، وما إن بدت لها محتويات الغرفة من بعيد عبر بابها الموارب حتى أســرعت الخطى ناحيتها، وكلما اقتربت كشفت محتويات الغرفة عن نفسها، كرسي من الجلد كبير دوار ككراسي المديرين ورجال الأعمال، مكتب كان فخمًا -هذا ما اكتشفته بعد أن استقرت بالغرفة، لكنهــا رأته فخمًا بالفعــل في نظرتها المرتبكــة المتعجلة الأولى، كمبيوتر بأعلاه، ســجادة جميلة عالية الوبرة اكتشــفت بعد ذلك أن

أكثر من ثلثها المهترئ قد خبأه سـرير مـن النحاس، دولاب من أربع درف، درفتين من الخشب ودرفتين مرايات بوسطه، ما يشبه التسريحة دون مرآة، عليها تفاصيل كثيرة بعضها ينتمي لها -على افتراض أنها تسـريحة- كالبنس وفرش الشـعر والسيشوار وعلبة الكريم، وبعضها بعيد كل البعد كالمسامير المتفرقة وأسلاك مقطعة بأطوال مختلفة، حزام جلدي بجراب معلق على عمود السرير يبين منه أخمص المسدس، وهو ما تعلقت به عيناها، وشغل عقلها طوال تواجدها بالمكان.

أي واحـدة غير هند كانت لتهـم بالفرار مرتعبـة وقت رأت المسـدس، بالأخص لو أضيف إلـى ذلك جو المخزن باتسـاعه المخيف، وحوائطه القاتمة، وكراكيبه الغريبة، لكن ما أحسـت به هنـد مختلفا بالكلية عن ذلك، شـعرت بحنين غريب في كف يدها لملمس المسـدس، حتى إنها أعجبت بنقوش أخمصه، تلك الخطوط المتعرجة الدقيقة التي دُقت على أخمص المسـدس بارزًا عليها ما يشبه النجوم، نقوش تشبه مثيلتها التي دُقت على نحاس باب الجامع الكبير، وطالما تركت بنفسـها بالغ الأثـر.. دائمًا ما يغطيها حزن شـفيف ترى الدنيا من خلاله لأيام، كانت تتحجج بمشـاوير ناحية الجامع لرؤية تلك النقوش.. فتح هذا المسـدس بنقوشه البارزة باب الحنين، وردها إلى شارع السوق القديم وسومة ردًا ناعمًا.

كما أن إثارة الجنس كفعل في مكان بهذه الخطورة لا تساويها إثارة، جزء أصيل من إدمانها على الجنس ومحبته هو الإحساس بالخطر، وقت يغلي دمها فائرًا لأعلى، تحمر على إثره وجنتاها، وتلتمع عيناها، ويعلو صدرها على إثر شهقاته، وتدق طبلة بالقلب تتراقص على إيقاعها في خفة، كي تتسلل إلى شقة عشيق، أو تهرب من قبضة محب. إثارتها تبدأ من لحظة بدء الخطورة، لا! قبل ذلك، تبدأ وقت فكرت فيها، ووضعت الخطط والسيناريوهات والبدائل، تتسرب إليها النشوة قطرة قطرة مع كل تفصيلة ترسمها، تحب الخطط والتنفيذ والمفاجآت، كل مفاجأة برعشة في الدماغ، يصنع تدافع السيناريوهات بعقلها لحظة المفاجأة تنميلًا لذيذًا يسري بجسدها كله، ينبه كل خلية بجسدها، ويمس كل سنتيمتر من جلدها، ووقت يغوص لحمها بلحم آخر تشعر بذلك حتى أظافر قدمها، تسبح في هيولي اسمه الجنس، دون شكل محدد أو اسم واضح تتذكره.

لولا الأجران في القرية، وخشونة ملمس القش لجلدها، ما احتملت تلك القرية أسبوعًا، والآن وقد عادت المدينة تمني النفس بدرجة عالية من الخطورة، اجتذبها مازورة ببدائيته وغموضه، وهو بكل توحشه يخجل من نظرة صادقة لنن عينه، إعجابها الدفين بمشواره من صبي تافه كباقي صبيان المعلم إلى معلم عن حق. لمعة الطموح بعينيه تأسرها، تلك الثقة التي يفرض بها سطوته

علـــى الذكور، وهذا الضعف الحاني وقت انفرد بالأنثى، وفوق كل ذلك يمتهن المغامرة.

كان تمنعها وقت بادرها -ولا نستطيع الجزم بأنه من بادرها، بل أذهب لأبعد من ذلك فأقول لا نستطيع الجزم بأن وُجد رجل كان من الشجاعة والتسامح، أن يبادر امرأة دون جس نبض وقدرة على قراءة إشاراتها، أن يبادئها بالكلية، وعلى أتم الاستعداد أن يتحمل على ذكورته ألم الرفض، إلا أن يكون مغتصبًا فهذا أمر آخر- تمنع التأني وحبك الصورة التي رسمتها لنفسها أمامه، آمن بصورتها كما أرادت، فأعطته ما أراد، وزادت بما لم يكن يعرف.

ما إن شـــبع اللحم من اللحم حتى اعتدلت جالســـة، تسند ظهرها على شـــباك السرير، يحاذي جراب المســـدس أذنها اليسرى، ثنت كوعها للخلف والتقطت المسدس بكف يدها، دون النظر إليه، كأنما التقطته من عقلها، ليمتثل أمام عينيها. ثقل المســـدس على غير ما توقعت، وبرودته المعدنية ردتها إلى الواقع دون إرادة منها، وكانت تمني النفـــس بخيال أملس ناعم تفتح تلك النقوش بابه. راحت تقلبه بين كفيها كأنما تحزر وزنه، تركز كل هذا الثقل في تلك المســـاحة الصغيرة، واستراحته على كف يدها المفرودة في استرخاء، كأنما سفينة على الماء.

غير أن شـــيئًا تغير بها وقت صار المســـدس بكف يدها، شيئًا

ادركته على الفور ودهشـــت منه "كيف لحديدة أن تغير إنسانًا؟ أن تُنشئ مشاعر! أن تنحت في روحك مجرى جديدًا، تجري به أفكار لم تكن لتخطر لك على بال! كأنما بمجرد أن أمسكتها صرت إنسانًا آخر".

وضعت سبابتها على الزناد وراحت تقتل الهواء، بصوت متتمر يخرج من بين شـــفتيها، ناحية الباب المغلق مرة، وناحية الســـقف المبقـــع مرات، وضحكتهـــا أقرب إلى الهيســـتريا منها إلى الفرح الطفولـــي "بضغطة واحدة أنهي حياة إنســـان.. أي قوة أملك!.. لو طلبت منه الســـجود لســـجد" أفكار تراوح عقلها لم تكن لتتصورها أو تبين لها طريقًا "وأنا كنت ألوم القاتل!! ياللســـذاجة.. كيف يمكن لإنسان أن يكون أقوى من تلك الحديدة!"

بقدر ما بدا رومانســـيًا حالمًا في جرابه، بقدر ما خافت نفســـها وقت أمســـكته "إننا أمام تلك الحديدة خائفـــون في الحالتين، نخاف أنفسنا لو كان بيدنا، ونخاف عليها لو كان بيد غيرنا، فلنكن في زمن الحديدة مع القاتلين ذلك أفضل جدًا".

لو رأت نفســـها في تلك اللحظة، لفســـرت بسهولة سبب نظرة الرعب على وجه مازورة، رغم محاولة الأخير التبسم، محاولة هو يعرف فشـــلها لكنه حاول على كل حال "ليس في الدنيا أخطر من مسدس تسعة مللي في يد طفلة صغيرة".. ينظر لها ولا يعرف ماذا

يفعل، كأنما تمســك زجاج روحه الهش وبضغطة خفيفة سينكسر. يحرك يديه ناحيتها بحرص بالغ، ويبتسم مروعًا بثقة زائفة في أول الأمر، ثــم برجاء في أقل من دقيقة، وهند ترفع المســدس بتكاد. وتصوب ماسورته ناحية مازورة، تنظر بأرنبة أنفها في المسدسين. بضحكة هيستيرية قطعتها مصطنعة الجدية:

- كم رجلًا قتلت؟ تكلم!

لم تســتطع اصطنــاع الجدية أكثر من ذلــك، فأكملت ضحكها ولحمتها العارية تهتز فيما يشبه الرعشة.

- أتكون قتلت نساءً يا خسيس؟

هو في هذه اللحظة لا يعرف، أتهذي أم هي جادة. أتريد فعلا إجابة السؤال؟! شعر بقطرات العرق على خده رغم رعشة البرد لجسده العاري، وقد انزاح الغطاء عنهما، ولا يعرف أي منهما متى حدث ذلك.

- اعترف.

ظلت تقتل الهواء ناحيته، مخرجة نفس الصوت من شفتيها، ترفع المســدس في الهواء بكفيها، وســبابتها تمس الزناد مسًا خفيفًا دون إدراك منها، غير أن عين مازورة صورت تلك المســات تصويرًا بطيئًا. وظلت تعيد الصورة بعقله.

- اهتدي يا مجنونة، أبمثل هذا تُقتل النساء؟!

- لن أدعه حتى تعترف، أنت الآن عارٍ أمامي كما ولدتك أمك، ضغطة واحدة تنهي قصتك عاريًا كما دخلتها.

"أتريـــد الإجابة حقًا تلك المجنونة!! أيكـــون الموت جميلًا بهذا الشكل!! لا لن أموت اليوم" عيناه ترصدان كل هنة منها في جحوظ والأفكار تكاد تنفـــذ من عقله "يا بنت المجانين" حتى إنه فكر جادًا أن يعترف بما تريد.

كلما هم بيده ناحيتها، انزعج المسدس في كف يدها، وزاغ نن عينها، وزادت رعشة المجون. تلك المرة الأولى التي يختبر فيها شعورًا من هذا النوع، فلا هو بالموت الذي يقف في مواجهته صلدًا حتى ينتهي أحدهما من الآخر، ولا هو بقضاء اللـه "أي خنوثة تلك.. أأموت هكذا؟"

حاول أن يصطنع الجدية وعدم الاهتمام، غير أنه لم يتمكن من السيطرة على رعشة جسده، وجحوظ الخوف بعينيه..

- والآن.. ماذا تريدين؟! أعطيني حتى الغطاء أكاد أتجمد من البرد يا مجنونة.

- ماذا أريد.. ها.. أريد أن أعرف كل ما تســتطيع تلك الحديدة أن تخرجه منك.

- ما يستطيع أن يخرجه الحب مني أكثر بكثير.

الحقيقة أن مازورة كان صادقًا، وأجاب بما يتصوره في نفسه بالفعل، حتى إن صدقه هدأ من روعه، واستراحت عيناه للحظات بدا فيها الصدق مساويًا للأمان، على أي شيء عليه أن يبحث في صراعه إذن؟ صراع يخوضه ضد مسدس مجنون بلا منطق، أي إجابة قد تكون خاطئة، علام يعول في هذا الموقف العصيب التافه، وقد تعطل جسده بعدما سلَّبه الخوف بالحرص ومخافة التهور، أيكمل صدقه؟!

بينما ردت تلك الإجابة هندًا لنفسها ثوانٍ "أيكون هو هذا الإنسان بالفعل؟! تنتصر المحبة على الخوف في نفسه.." مس كعب للمسدس لحلمتها البارزة كلما اهتز جسمها، مع أثر سيجارة حشيش (من شرب المعلم) يكاد يذهب بعقلها من دفع الإثارة، يصنع قهقهات ماجنة في غفلة منها، وعلى غير إرادتها، فتزيد من اهتزاز جسدها وهكذا، ظلت في غنج شبق وضحك ماجن، لولا عتبة صغيرة لم تجد القوة في روحها لتخطيها لقتلته من فرط الإثارة، هي بتلك اللحظة كقهوة على وشك أن تفور، تقف على شعرة رقيقة بين أن تضبط وترد لنفسها، وانقطاع الرجاء، بين حدين، حد الكيف وحد القتل، تخرج الكلمة من قرار روحها.

- الحب! رجل يقول الحب! رجل يمثل دور إنسان.. وأنا الساذجة

الحقيرة أكاد أصدق.. ها.. بعدما نسيت كل هذا الضلال.. أتجرؤ أن تقصد الحب دون أن تذيله بذاتك يا جبان.

شيء يحرك الندية بداخله لا يستطيع له دفعًا، يلقي به على شفا السحاجة والتهور..

- ومن منا لا يحب ذاته يا حمقاء، أعطيني هذا المسدس لنرى.

كاد أن يمد للمسدس يده، لكن الخوف قطع عليه الطريق، ما من معركة دخلها إلا كان الموت هينًا، بل لقد طلبه للنزال صادقًا في أكثر من مرة "ما بال تلك!! ما المختلف هذه المرة.. لمَ أخافك يا جبان.. أعجز عن مدة يد! أخاف أن أنش ذبابة من فوق أنفي.."

قرأت هند نيته فتراجعت مذعورة جادة، تقف على قدميها وتؤكد سبابتها على الزناد، وجدت نفسها فجأة هكذا، تضمر نية القتل وتعيها، نحت الإصرار وجهها وما ارتسم عليه من تعبير تفصيلة بتفيصلة. شيء غامض نفث الكره في الهواء فتنفسته مجبرة، يرتعش المسدس بيدها في مشهد يليق بمنتقم.

شيء بداخلها يدرك تورطها ويتساءل عن سببه، غير أن قدم ما بها من إثارة تدوسه، وما الضغط على الزناد إلا عتبة أخيرة قد تدوسها أيضًا. إن ما تحرك نشوتها الآن لهي تلك النظرة بعين مازورة، وهي تستحيل من العناد إلى الخضوع، ومن الخضوع إلى العناد.

- كم من دم سفحت.. تكلم؟؟!!

لقد سيطرت الجدية على الموقف كله، شعر كل منهما أن لزامًا عليـــه المضي قدمًا، كل في دوره، وإن كان ســؤال حائر يُســمع صداه: من أدار المؤشـــر في هذا الاتجـــاه؟ كيف وصلت إلى هنا؟ وبـــأي حافة نزلت؟ غير أن دقة الوقت، وحضور الموت، زادا من حيرة السؤال، فضل سبيل العقل.

- عن أي شـــيء أتكلـــم.. أترينني أحب القتـــل؟! ها.. صحوت من نومي في أحد الأيام فقلت لنفســـي وما المانع.. أشتري مسدسًا وأصنع بعض الجثث.. أقتل بعض الأشـــخاص لا يضير لأكســـر الملل.. قلت لنفســـي ما أجمل أن أعيش على حد السيف، تنتظرني رصاصة خلف كل حائط.. وراء كل شجرة.. أتدركين حتى ثمنه!؟ أتعرفين حجم مـــا حملت من خراء على كتفي حتى ملكت واحدًا!؟ الدم أحمر، ساخن، ابن الحياة وصانعها.. أما الخراء المذلة والعار.. لا.. لا نجاة من رائحته.. ولا احتماء من رطوبته اللزجة.. تعرفين أن أثـــرًا من رائحته ما زال بجلدي علـــى الرغم من كل الدم الذي اغتسلت به.. بركة من الدم وبركة من الخراء وعليك أن تخوضي واحدة منهما، أيهما ســـتختارين؟؟! أجيبي.. ولتعرفي جيدًا أن الدم بلا رائحة، أما الخراء تَشـــمُ رائحته جلدك والناس لا ترحم.. حينما أقف أمام المـــرآة وأرى وجهي أنظر إليه مفتخرًا.. ليس بما ملكت من مال، ولا بتلك الغرفة التي أحكم منها المدينة، إنما أفخر بكتفين

من صخر شالا بحرًا من الخراء فعبرت به، وما سقطت.

ثم اســـترد أنفاسه وقد ذهب عنه الخوف تقريبًا في تلك اللحظة، حتى إنه اعتدل في جلسته ناسيًا أمر المسدس، وتقريبًا أراحت هند يدها جانبًا من وضع التصويب، أو هكذا شُـــبه له، كما شُـــبهت له صور يده وهي تتحرك أثناء كلامه.

كان في تلك اللحظة معجبًا بنفسه أيما إعجاب، لاحظ أن هذه المرة الأولى التي يخوض فيها حوارًا كهذا حتى أمام نفسه، ليس ذلك بالتحديد مصدر إعجابه، إنما تدفق أفكاره وترابطها وحجيتها، هو نفسه اقتنع بها، وهو الرجل الذي يخاف أن يطيل في الكلام، حتى إنه قد يقتل لإنهائه، ثم استطرد متأثرًا بتلك الحالة وقد أطل المكر من عينه..

- ما يخطر ببالي الآن ويشغلني هو سؤال واحد.. ترى حينما تقفين بمرآتك ماذا ترين؟!

كان هذا السؤال شديد الحمق منه، بعدما صورت له سذاجته طلب اعتراف من أنثى كشيء ممكن، ومتى يطلب منها هذا الاعتراف!! وهي من تحمل المســـدس. غير أنه لم يـــدرك ذلك بل اندهش من الغضب البادي عليها.

فقد كانت هند تنظر إليه غاضبة تحرك المسدس أمام نن عينه، وقد اعتادت ثقله وتمكنت من إمساكه بكف واحدة وبسهولة، بدا المسدس في حركته كأنما امتداد ليدها. صاحت به ساخرة:

- أتســـألني أنت! أنت! عما أشعر به أمام مرآتي؟! أتسألني كيف أرى وجهـــي وقد فتن مدينة بأكملها.. أفـــلا يفتنني يا أبله!! فطرت قلبي يا مسكين.. سأتكلم مع أشرف باشا ليضع لك تمثالًا من الخراء في مدخل الســـوق.. لتظل رائحته بعد موتـــك.. رائحة الغدر.. بل رائحة البهجة في نفســـك وأنت تنظر من علٍ لضحيتك.. ويخضب يدك دمها.. أي نشوة أحقر من تلك.. أي رائحة أقذر!

مزجت دموعها النشـــوة بالســـخرية بالغيظ بكره لا تعرف مصدره، في شـــعور واحد، عصي على الإدراك والتفسير. فهـــي تـــدرك أنها لا تعرف ســـببًا واحـــدًا فيما تفعـــل، ومع ذلك غير قادرة على التوقف، كأنما انقسمت اثنتين، واحدة تمسك المسدس وأخرى تشـــاهد بصمت وقلة حيلة، صداع رهيب يكاد يشق عظمها وقت تكلمت من أثر ارتجاع الصوت لمســـامعها، وهو ما حدا بها أن تقطع كلامها فجأة، غير أن صفير الصمت كان أعمق وأشـــد، فاستطردت تكسر الصمت ساخرة:

- أي رب رحيم أنت! تمســـك المســـدس دامـــع العينين تطلق رصاصة الرحمة.. مضطرًا يا مسكين.. ها.. أظن أنك تقتل لتنهي عذابهـــم وتريح عائلاتهم منهم.. أنك قاتل خير.. ها ها.. أليس ذلك بصحيـــح؟! لا تأتيك شـــهوة القتل.. لا.. إن نفســـك لتعف عن تلك الشهوات وتزهد.. تزهد القوة..ها.

كلام هند الأخير كان قد رتب وجهز بذهنها في وقت سابق من

هذه المقارعة، وإن بدا في سياقه، كانت تتحين الفرصة كي تلقي به في وجه مازورة، صحيح أنها لم تكن بأفضل فرصة إلا أن الصمت كان قاسيًا أجوف، قد تفعل أي شيء لتنهيه.

بينما ظل مازورة على دهشته، وإن شابها بعض الغضب "أذهب كل ما فات سدى؟ كل هذا التنمر لمجرد أنكِ تمسكين بمسدس.. آه يا لبؤة!! قبلت التحدي" مشاعر متداخلة تضربه بعنف، الخوف مكونها الأساسي وإن لم يعد المكون الوحيد، موقفه كذكر أولًا وكمعلم ثانيًا بدأ بوخز عقله، شكات متفرقة واضحة "مرة تحاسبني!! وتحاسب من! المعلم!!"

لكن مسألة أنه عارٍ تلك تنغص عليه النفس، وتورثه شعورًا عميقًا بالضعف، فما من مرة اضطر فيها إلى أن يخلع ملابسه حتى سارع بستر بطنه وجوانبه، جوانبه بالتحديد هي ما أفسدت عليه حياته، وجعلت من النظر إلى جسمه في المرآة كابوسًا مضحكًا. لا نعرف بالتحديد من أين جاء بيقين شكل جسمه المضحك هذا، فهند حينما سألها عم سعد فيما بعد عن شكل جسم المعلم، وعلى الرغم من غرابة السؤال لم تندهش، وأجابته بلا مبالاة: "عادي.. رجل" ورأي هند في تلك القضية رأي له وزنه، فلو كان بجسده ليس ما يدعو إلى السخرية، بل ما سيصبح كذلك مع السن، لفضحت الدنيا وأزعجت قهقهتها مدنًا أخرى. غير أن هذا الأمر مثّل للمعلم كابوسًا لا ينتهي، وكان أول فكرة ترد بذهنه ويتحسب لها.

لو فقط استطاع أن يمد يده للغطاء لساعده ذلك على التفكير، وخوض صراعه بشكل أفضل. لكن، ومن حسن طالعه أن بقي له من حدة الإعجاب بنفسه والرضا عنها القليل ليكمل به، ولم يقض كلام هند عليها بالكلية، بل حمل كلامها محفزًا جديدًا لعقله، وتحديًا لقدرة اكتشفها حديثًا بنفسه.

- الخير والشـــر!! يتقمصـــص الأطفال المضحكة.. السـاحرة الشـــريرة والأميرة الطيبة.. مـــلاك بجناحين أو شـــيطان بقرون وذيل.. لكن الدنيا أقسى من ذلك بكثير يا صغيرة وأعقد.. الغابة التي تختبئ فيها الأميرة الطيبة.. غابة عن حق.. غابة من عالم الحيوان يأكل القوي فيها الضعيف بأســـنانه، لا من فيلم كارتون تغني فيها العصافير وترقص الســـناجب.. أيملك الأســـد فيها مسدسًا؟! الأسد تكفيه أســـنانه.. أما القرد فلزامًا عليه أن يملـــك واحدًا ليظل حيًا.. أتحســـبين أنـي أمسكته عن قوة!! عبيطة!! بل أمسكت المسدس عن ضعف وصوبته عن خوف.. وخرجت أول رصاصة منه مذعورة طائشة..

كان الكلام يمشـــي على لسانه بســـهولة ويسر، يتأمل كل جملة بعد أن ينطق بها بإعجاب أقرب إلى الدهشة "لن أبيع جرامًا واحدًا من هذا الصنف.. أعرف هذه الدماغ.. (فوء الشـــوء).. اللـه اللـه" هو يقصد بالقطع غنوة عبد الحليم الشـــهيرة (فوق الشوك)، وخلط عجيب في المعنى لا يخلو من دلالة أصابه من وقت سمعها صغيرًا.

هــو من جهة يعرف أن عبد الحليم قد يقصد الشــوك، وفي مقاربة خاطفة ذكية، قارن أثر تنميل دماغه بعد الصنف، بأثر المشي فوق الشــوك، وفوق في هذا الفهم تفيد العلــو أو الما بعد لأعلى، فليس مجرد الشــوك بل ما بعده، كأنما يقول معناها تحمل الشوك لتصل ما بعده، أو أن الشوك ليس سيئًا كما تظن بل بداية طريق الصعود.
ومــن جهة أخرى هو متأكد أنها تحمل معنى إيجابيًا -خارج أدمغة الحشاشــين-فالمقصود فــي الغنوة طريق الحب، لذا كان الشــوق الأقرب إلى الفهم، وغالبًا خدعته أذنه في توصيل الرســالة، فتعقد معنى الحب حتى يصبح الشــوك طريقه لم يرد بذهنه أبدًا، فالحب عنده هو الوصل وفقط، وفــوق في هذا الفهم تحمل معنى الزيادة، أي أكثر من الشوق.

كما تحمل المعنى الأكثر عمقًا، والذي اختص به نفســه، وقت هاتفته هند تستدعيه بأي مناسبة يرد قائلًا: "أجيئك فوق الشوق" أي راكبًا الشــوق كبساط ريح، والغريب في الأمر حقًا أن هذا المعنى هو ما يصل هندًا بدقة، حتى إنها اســتعملته مع حامد في أكثر من مناسبة.

يبدو أن لمازورة خلفية موسيقية جيدة، فما من صنف نزل به السوق إلا وصكه على اسم غنوة شهيرة تعجب السميعة، وفوق الشوق هو اسم قديم بذهنه، كل ما في الأمر أنه ينتظر الصنف الذي يليق به، وكانت تلك اللحظة بمثابة كشف، على الرغم من أننا

لا نعرف لما سمى هذا الصنف لو كان ينوي فعلًا ألا يبيع منه.

ولا أدل على أن هذا الصنف من الآخر، أكثر من كون المعلم بنفسه نسي تأمين مسدسه، وترك الخرطوش بحجيرته جاهزًا على الإطلاق، وهو ما جعل الندم حاضرًا معه بقوة، بل إن هذا الندم في الغالب هو من فتح الباب للخوف في نفسه من الأصل، غير أنه ظل متمسكًا بحالة التجلي تلك حتى أهدابه، فاستطرد مشدودًا:

- الشهوة..

وراح يفتش عن تتمة لكلامه كمن يقف على شفا حفرة، يتعجل استدعاء الكلام فينفلت من عقله..

- شهوة القتل..

ظل يتأمل هذا العنوان الذي ورط به نفســـه، شهوة القتل، وكلما كررها بعقله فقدت معناها "شـــهوة القتل!! أنا قلت هذا؟! شـــهوة.. القتل.. ألهذا الكلام معنى بالأساس!! ومن المفروض أن أجود وأزيد عليه! نعم القوة.. أي قوة!! لقد نُظِر هذا الصنف والله.." بانت منه ضحكة استقبلتها هند فاغرة فاها، فلحقها قائلًا:

- انظري إلى نفسك..

وحال (انظري إلى نفسك) ليس بأفضل من حال (شهوة القتل) ظل محشورًا بين الجملتين، بعدما أكدت له نفسه أن ثمة رابطًا بينهما، لكن ارتباكه حال دون أن يمسكه وقت ومض، لقد قال جملة (انظري إلى نفسك) تلك كواحدة من جمل أخرى قد رتبها بعقله،

ودهشة هند هو ما حدا به أن يلقيها هكذا، وما إن ألقاها حتى نسي ما بعدها، ظل يعافر عقله جاهدًا كأنما يدفع حمولة في مطلع، إلى أن يئس فترك نفسه حرًا لتلك الحمولة تذهب به أينما شاءت..

- نعم شهوة القتل.. نعم انظري إلى نفسك.. صحيح انظري إلى نفســك.. أفلا التفتِّ إلى المرآة؟! كيف أصف تلك النظرة بعينيك.. ما إن أمسكتِ المسدس حتى انتصبتِ كربّ وشرعتِ في حسابي.. أي شــيطان أعطاكِ هذا الحق؟! انتظري سأجيبك.. ما من شيطان غيره.. هذا الصغير بكف يدك.. لقد قلتِ رائحة البهجة في نفسك.. أليس كذلك؟! أحب أن أســجل إعجابي بهذا التعبير على الرغم من أني لا أذكر ماذا قصدتِ به أو بأي مناســبة قلته.. إلا أنه أعجبني.. بالفعل للبهجة رائحة.. وللشــهوة رائحة أيضًا.. ها ها.. نعم للشهوة رائحة كتلك التي تملأ أنفك الآن.. وللقوة مجونها.. وإن خالط الشك نفســك فيما أقول فما عليكِ إلا أن تسألي.. هذا البريق بعينيك.. هذا الأحمر بوجهك.. بل اسألي جسمك المشدود وحلماتك النافرة.

كاد أن يصفق لنفسه بعدما أنهى كلامه على الرغم من الصعوبة الكبيرة التي بداه بها "عليّ أن أكف عن القلق.. لساني يعمل وحده" وبالأخص مسألة البهجة ورائحتها تلك، حتى تلعثمه وتكراره لجملة (انظــري إلى نفســك، التفتي إلى المرآة) فــي بداية كلامه قد أتت بأثرها، كما لو كان يقصد التكرار، فقد بان من هند أكثر من التفاتة إلى اليمين باتجاه المرآة أثناء كلامه، غير أنها لم تكمل واحدة منها إلى الخلف، حيث المرآة بالفعل.

والحقيقـــة أن مـــا كان يدفعها إلى النظر فـــي المرآة ليس كلام مازورة فقط، وإن كانت قد اتخذت من كلامه ذريعة لمحاولة النظر، فهي تقريبًا لم تعِ كلمة واحدة مما قال، المفردات تتردد بذهنها دون معنى، فقط وقتَ وصف جسمها وبريق عينيها وهذا الكلام، قد ترك بها أثـــرًا جميلًا، فقد أخذته على محمل الغزل ولم يخطر ببالها أنه قد يحمل معنى آخـــر -الحقيقة أن عينيه كانتا تتغزلان بالفعل وقت قاله- إنما دفعها إلى محاولة النظر إحساس بعث فيها التقزز، وزاد الغزل من إلحاح تلك الفكرة عليها، فقد تملكها شـــعور بأن المخاط يســـيل من أنفها، ولا تعرف في حقيقة الأمر أيسيل فعلًا أم هي من تشعر بذلك فقط؟ وكانت في البداية قد أزاحت الغطاء بعيدًا بقدمها، بعدمـــا لاحظت تعلق عين مازورة به، ليـــس فقط الغطاء بل حتى المـــلاءة، الملابس، كل شـــيء يمكن لمازورة أن يغطي به نفســـه تقريبًـــا، ووصل بها الأمر الآن أن فكرت فـــي أحد جواربه، بينما كانت تفتش بعينيها عن شـــيء قريب يصلح أن تمسح به، وخشيت أن تمســـح أنفها بمعصمها فيغطيه المخاط، وتضطر أن تمسحه في جسمها.

كان عقلها ينتج تصورات تثير الاشـــمئزاز والقرف في نفسها، يغطي المخاط كل أفكارهـــا تقريبًا في تلك اللحظة، كأنما ماء لزج ألقي على نار إثارتها فأطفأها "لقد قال.. كتلك التي تملأ أنفك الآن.. ماذا يقصد!! ألم يقل ذلك!!" بينما كان هذا الكلام يدور بعقلها كانت

تتحسس بلسانها أعلى شفتها في محاولة للوصول إلى إجابة السؤال، أهناك مخاط بالفعل؟ غير أنها لم تحصل على إجابة شافية.

حسبت يدها اليمين خدلاء من ثقل بالكف لا تعي سببه الحقيقي، كانت قد نسيت مسألة أن المسدس بيدها تمامًا، حتى إنها حكت رأسها بماسورته، ورتبت بها خصلة من الشعر خلف أذنها، وقفت تائهة دون الإثارة، توزع نظراتها على محتويات الغرفة دون هدف. كل شعور جديد يأتيها كأنما ولدت به، ولم تشعر بغيره من قبل، فمن ثانية واحدة كان العالم في كفة والنظر في المرآة في الكفة الأخرى، الآن تمر بعينيها على المرآة أربع أو خمس مرات دون النظر فيها، تدور في مكانها بخفة كأنما تدور مرتكزة على إصبع قدمها الكبير ببطء.

أما مازورة فقد كان منذ أقل من ثانية هو الآخر أقصى أحلامه أن تلتفت هند، ولو مجرد التفاتة وافية، يستطيع خلالها الانقضاض على معصم يدها، ليُسقط هذا المسدس اللعين عنها، وهي الآن تلف أمامه لفات كاملة غير عابئة به، لو حملها بالمسدس ما قاومته، بل إن حملها هو ما فكر فيه جادًا في تلك اللحظة ناسيًا أمر المسدس.

راح يمسح بعينيه كل سنتيمتر بجسدها "إن لتقاسيم جسدها أعاجيب.. أعاجيب والله.." يقترب بوجهه من هذا الجسد بروية غير المصدق، حتى أحست أرنبة أنفه بالشحنات الكهربية المنبعثة منه، يخشى أن يمسه كأنما يخاف أن يفض الحلم الماثل أمامه،

في كل لفة منها يرى شـــيئًا جديدًا، وهي تتهادى بخدر وبطء كأنما يحملهـــا الهواء، يقف على ركبتيه في خشـــوع، بينه وبينها ما بين الزيت والماء، بنفس الســـطل دون اختلاط، لولا أن مؤخرتها تحك أنفه، وتمس ســـمانتها عضوه كلما استدارت، لما آمن بوجودها من الأصـــل، ظلت تدور في خوائها وتدور وتدور، حتى ســـقطت بين يديه.

***

منذ أكثر من ثلاثة أسابيع، وبينما حامد بدكانه يسند جبينه بكفه، وشارع السوق خالٍ تقريبًا، وإذا بيد حانية تطبطب على كتفه، تكاد تتكئ عليه في سندة خفيفة، راح حامد بنن عينه إلى اليد، بحركة شبه دائرية من عنقه دون أن يرفع رأسه، فوجدها بيضاء معروقة مشعرة، نمّت شفتاه عن ابتسامة وتكلم بتؤدة أقرب إلى اليأس:

- كيف حال الدنيا يا عم سعد؟

- إنما الدنيا دار اختيار يا بني، تجدها كيفما اخترت.

- هذا كلام الشـــيوعيين يا عم ســـعد، وأنت رجـــل تحب الله ويحبك.

رد حامد ساخرًا، وكان يحب أن يثير حمية عم سعد بكلام على هذه الشاكلة، فيفتح الرجل خزائن حكمته كاملة، ويُخرج منها جملًا كلية المعنى تهدهد الروح، ليس ذلك فقط، إنما هناك غرض آخر

غائر بنفس حامد، فقد كان يخشى أسئلة عم سعد البسيطة الساذجة، التي ما إن ينتهي حامد من الإجابة عليها، حتى يجد نفسه قد باح للرجل بادق أسراره، كاملة وبالترتيب، دون أن ينسى أية تفاصيل، بل إنه في مرات يحكي تفاصيل غابت عنه وقت حدثت، واستدعاها الحكي للمرة الأولى ربما.

يســـأل نفسه ويرد عليها ويرجح احتمالات ويُسقط أخرى، كانما يفكر بصوت عالٍ وقد نســـي وجود عم ســـعد بالمرة، حتى يسأله عم ســـعد بصوت يشبه صوت أفكاره، فلا يكاد يميزه. أسئلة يكون الغرض منها تأكيد احتمال أو استبعاد آخر، تحضه على الاستطراد وليست بغرض المقاطعة أو فتح موضوع جديد.

لذا اعتمد حامد تلك الطريقة كلما جمعهما الحديث، وهي أن يدفع الكلام نحو العموميات الكبيرة، اللـه، الإنسان، الحياة، الموت، المحبة، السياسة، هربًا من تلك الأسئلة البسيطة التي لا يستطيع حامد إلا أن يجيبها، غير إنه ولا مرة نجحت تلك الطريقة.

يماشيه عم سعد بالكلام، وفجأة يجد حامد نفسه غارقًا في واحد من أعمق أسراره، متى حدث ذلك؟! لا يعرف، كيف ولج إلى تلك المنطقة بنفسه؟! لا يعرف، هو فقط يحكي أسراره ومخاوفه، حكيًا سهلًا يسيرًا.

ففـــي آخر حديث جمع بينهما وجد حامد نفســـه منقبض الصدر يشـــيح بيده، تنز عيناه دمعات كبيرة كلما اضطر أن يطبق جفنيه، دون بكاء..

"نادية.. أيمكن لكائن بتلك الرقة أن يعيش وسط هؤلاء! هؤلاء! أتظن أني أستثني نفسي منهم.. من (هؤلاء).. أبدًا والله إنما أنا أحقرهم.. تصور أني أخاف على ابنتي مني منها.. من نادية.. أختي الدكتورة نادية النبيلة النبية.. منذ اعتزلت بغرفتها واكتفت بنفسها لم تسمح لإنسان باقتحام خلوتها غير الصغيرة مني.. كنت نسيت ضحكتها.. كنت نسيت صوتها حتى.. أقول لك بصدق كنت نسيتها بالكلية.. بل سأقول لك الأحقر لقد اخترت أن أنساها.. عرفت إلى أي مدى قد يصل إنسان في محبة نفسه؟! يختار أن ينسى أخاه لحمه ودمه.. والأبشع أنه يخاف وقت يضحك أخوه.. نعم خفت وقت اقتحمت مني خلوتها وسمعت ضحكاتها.. خفت على ابنتي منها".

كان زائغ البصر، يختلط العرق بالدموع، فينتره بجانب سبابته من أعلى خده، يقف كأنما على الشوك.

"أرأيت هذا (البأف).. نعم الواقف هناك.. هذا البغل المتكئ بقدمه على الرصيف.. أرأيت هذه النظرة اللزجة الجائعة بعينيه.. ثم انظر إلى هذا الملاك العابر بضفيرتيها ومحبتها للحياة، ما إن انتبهت لنظرته.. انظر.. تقبض وجهها وتعثرت بكتبها.. انظر.. تكاد تنكفئ.. إنها مرتعبة.. هل كان لنادية أن تحتمل نظرة كتلك.. نظرة!! نظرات ومسات وحك وقرف.. الا أنظر أنا نفسي تلك النظرة!! ألم أقل لك إني كائن بشع.. يوم استشار أبي الطبيب بشأن نادية بعد إلحاح مني واشتبه في حالة فصام.. مرض نفسي أنت تعرف..

كشـــف عليها وأكد الأمر، وطلب أن ننقلها إلى مستشفى الأمراض النفســـية حتى يبدأ العلاج هناك.. مستشفى خاص كالفنادق.. حاولنا معه بكل الطرق أن يبدأ العلاج بالمنزل إلا أنه رفض قائلًا: (لا فائدة منه، يجب أن تقضي بالمستشفى ستين يومًا كحد أدنى، ثم بعد ذلك يمكن أن نكمل من المنـــزل) إلا أن نادية رفضت بعنف.. رفضت لدرجة أن هذه الكائنة شـــديدة العذوبة والنقاء سبت بألفاظ موجعة، ودفعت بيدها، وصرخت واستغاثت فلم يقدر على تلك الوديعة أحد.. فمـــا كان من الطبيـــب بعد أن حكينا له الأمـــر إلا أن اقتطع ورقة صغيرة.. أصغر من كف اليد، ما زلت أذكر لونها المائل للصفرة، وكتب عليها بسرعة كبيرة كلمة بالإنجليزية بخط مشبك ممتد قائلًا: (ضع لها هذا المخدر بالعصير) لم يزد عن ذلك".

خر حامد جالسًـــا وقست عيناه في غيظ "لك أن تتصور أن أبي المعلم صبحي السمسار، البلطجي، تاجر المخدرات، لم يحتمل هذا الموقف.. لم تحتمل إنســـانيته أن يضـــع المخدر لابنته.. وتصديت أنا المثقف الذي يحلم بتغيير العالم له.. اشـــتريت البرتقال وقطعته ووضعته في الخلاط بنفســـي وأضفت إليه المخدر.. أمي.. أمي لم تحتمل ذلك.. أقول لك إن أمي من يوم حدث ما حدث لنادية لم تفعل شـــيئًا ســـوى البكاء.. ظلت تبكي حتى قابلت ربها.. حملت كوبي العصير وميزت الذي يخصني بأن حملته بيدي اليســـرى.. تعرف أني حتى الآن يصيبني الارتباك كلما اضطررت أن أميز يدي اليمنى

عن اليسرى، أو أدل شخصًا على اتجاه.. حين يسألني شخص أفكر قليلًا قبل أن أجيبه، أنا أعرف الاتجاه حقًا لكنى أفكر هل هذا الاتجاه يمين أم يسار.. فأتخيل أني أسلم على شخص وهمي، وأحرك يدي التي أســلم بها بشكل غير ملحوظ، فيتأكد لديّ اليمين، فأجيبه يمين لو كان باتجاه يدي التي أسلم بها.. المهم أني أخذت الكوبين وقدمت لها الكوب بيدي اليمنى فرفضته.. كانت في تلك الفترة لا تثق بغير علب العصير الجاهزة المغلقة وكنا نسينا هذا تمامًا.. فضحكت بود وقلت لها وأنا أيضًا لن أشرب هذا العصير وسأشرب ما تشربين.. ورميته.. أرأيت ضحكت بود كأخ.. أي خســة!! ذهبت مرة أخرى فاشتريت المخدر وعلبة عصير برتقال كبيرة.. نادية تحب عصير البرتقال.. أفرغت المخدر بالكوب في الصالة وفتحت علبة العصير، وأفرغت قليلًا منها ثم أكملت الصــب بغرفتها.. أمامها.. وناولتها الكوب وصببت لنفسي كوبًا آخر.. وابتسمت بود بالغ بدا صادقًا مع الأسف.. استطعت بكل أريحية أن أمثل هذا الدور.. بل ظللت أنظر في عينيها وهي تشربه.. كانت تثق بي.. كانت.. ثقة بلا حدود.. كم مرة شاركتني حلم تغيير العالم!!؟ أذكر حتى نصف ساعة من القلق على نجاح الخطة.. أذكر انزواء أبي في ركن مظلم بمدخل البيت.. أذكر دموع أمي وأنا أحمل نادية كجثة، وأســلمها للممرضين أمام باب الشقة.. أذكر كل شيء.."

تناول سيجارة من علبته ونفث دخانها ببطء، وظل يتابعه بعينيه

إلى السـقف "مـا يعذب روحي ليس ما فعلت، ألف مبرر أسـوقه لنفسـي، وكلها منطقية، بل لو أردت شريفة.. لكن كيف فعلت ذلك هـو ما ينغصني.. الطريقة التي فعلـت بها ذلك.. هذا الثبات وتلك الطمأنينـة.. كأنما جُبلت على الخداع.. تصـور أني لم أتردد ولو للحظة.. حتى بعدما رميت العصير وأعدت الكرة من أولها.. فعلت هذا لمرتين متتاليتين.. ببساطة أن تفتح عينيك بعد نوم عميق.. دون أدنى شعور بالذنب ولو على سبيل التطهر.. آه.."

يومها ظل يحكي إلى أن وجد نفسه وحيدًا فجأة، يكلم نفسه كالمجانين، أين ذهب عم سعد؟ لا يعرف، متى غادر؟ لا يعرف، لدرجة أن تساءل هل كان عم سعد موجودًا بالأساس؟ كل ما بقي له منديل وجده بيده، وصداع يكاد يشق رأسه.

أمـا في هذا الحوار فقد اسـتدرك حامد موضوع الشـيوعيين بقوله:

- هل تعرف ماركس يا عم سعد؟

- أعرف الإنسان يا بني، أينما وُجِد الإنسان كانت ضالتي.

- وهل بشارع السوق هذا الإنسان؟!

- الإنسان، آية الله في الأرض، ومعجزته الكبرى، وجسره. الإنسان كله للخير يا ولدي حتى وهبة.

نظر إليه حامد بذهول، من الممكن أن يفهم عم سعد لو قال حتى مازورة على اعتبار أنه مجرم فاسد، أو حتى ناصيف على اعتبار

أنه مسيحي، أو هند على اعتبار ما يقوله الناس عنها، أما أن يقول "حتـــى وهبة" فهذا أمر عجب، فلا يذكر حامد أنه تكلم عن الشـــيخ وهبة من قبل، بسوء أو بخير، مع عم سعد أو غيره، لم يذكره مطلقًا بحســـب ذاكرته، وما يجمعه بالشـــيخ وهبة ويراه الناس هو السلام ورده وانتهينا، فمن أين عرف عم ســـعد أن حامدًا يعد الشيخ وهبة أســـوأ إنســـان، ليضرب به المثل في خطأ انقطاع الرجاء؟ "الشيخ وهبة للخير! كيف اســـتطعت أن تعيش كل تلك السنين محتفظًا بكل هذه الطيبة يا رجل.. الشـــيخ وهبة والخير بجملة واحدة!! تلك نكتة اليـــوم بلا جدال.." لكنه فضّل ألا يخوض حوار الشـــيخ وهبة هذا حتى لا ينكشـــف مقته الشديد لشخصه وما يمثله، وإن كان ذكر عم سعد للشيخ إشارة واضحة على انكشافه، وهو الأمر الذي لم يستطع حامد استيعابه مطلقًا.

ظل حامد على ذهوله لدرجـــة أن اضطر لفرك عينه بكفه، همّ بالرد على عم سعد غير أن شـــيئًا عجيبًا حدث، ومكمن العجب لم يكـــن الندرة بل التفرد، فمن يقدر علـــى الاختفاء وأنت تنظر إليه، بمثل تلك الســـهولة، في كل مرة غير عم سعد، لقد تلاشى عم سعد في فركة عين.

منذ عشرة أيام أو أسبوعين على الأكثر، دخل حامد على ناصيف الدكان، فوجده واقفًا بمنتصفه يبتسم للا شيء، ابتسامة أقرب

ما تكون للبلاهة، قال له حامد مبتسمًا تلك الابتسامة التي تخرج من شخص على وشك القهقهة:

- ما بك! ها؟

رد ناصيف وهو يضرب كفًا بكف:

- والمسيح الحي إن عم سعد كان هنا في هذه اللحظة.. ألم تقابله في طريقك! الحل الوحيد أنه صعد! نعم صعد.

انطلق حامد مقهقهًا حتى ظن ناصيف أنه لن يتوقف اليوم، ما فجّر الضحك في حامد هو إدراكه التام لحالة ناصيف الآن، وفهمه ماهية هذا الشعور، وهذه المفارقة التي تأتي بنهاية بوح شفيف، عميق، نادر. تطيل مرافعتك وبلحظة الحكم لا تجد سوى نفسك، كأنما يسلمك عم سعد لنفسك ويمضي، فتقف أمامها لا تجد ما تقوله أو تفعله، حائرًا بين الجنون وبوح حميم.

- أن يكلمني عن مريم أمر مفهوم.. فالست فادية تزوره كل يوم تقريبًا، كأنما تتبرك به.. حكى أخبارها كاملة يا حامد من يوم اختفت.. كان الفضول يقتلني كلما رأيت الست فادية عنده، حتى عرفت منه أنه المرسال بين مريم وأمها.. لم أفهم جيدًا، أو بالأحرى لم أستوعب كيف نشأت تلك العلاقة، وكيف عرف طريق مريم، وكيف ينقل الأخبار والأشواق بين البنت وأمها وهو لا يكاد يغادر دكانه، وإن أراد لن يقدر..على الرغم من حكيه التفاصيل كاملة.. مَن زوجة مَن تعرف فلانًا أخو علان، دائرة طويلة تبدأ وتنتهي

عنـــده، مفادها أنه اســـتطاع أن يكون حلقة وصـــل بينهما.. الأمر لا يشغلني على أية حال، فقد كنت نسيت مريم تقريبًا.. أما أن يكلمني عن ماجدة.. عن تفاصيل أنت نفسك صديق العمر من أكشف نفسي أمامه لا تعرف عنها شـــيئًا.. أقول لك أكاد أنا نفســـي لا أعرفها.. يقول لي بصوته الـ.. أنت تعرف صوته: "إنما الطريق مشاركة يا بني فشـــارك كي تصل" ما معنى هذا الكلام على أية حال؟! شيء غريب حدث.. فأنـــا لا أعرف على وجه التحديد أهو من حكى لي تلك التفاصيل أم أنا مـــن حكيت؟! لكن ما أعرفه أن هناك تفاصيل لم أكن أنتبه لها أو أعرف عنها شيئًا قبل أن أتكلم معه.. تصور أنه كلمنـــي عن أم ماجدة.. وأنها ربت ابنتها كالرجال وعليّ أن أحتمل طباعها.. وأضاف "دون لين أو قسوة"!!..تعرف أني لم أرَ حماتي منذ ما يزيد عن عشـــر سنوات، لدرجة أني دهشـــت لكونها كائنًا موجودًا ويحكـــي عنه.. قال كلامًا عجيبًا عـــن مجدي.. قاله لي.. لي أنا.. قاله كأنما يعرف شـــيئًا.. قال عليك أن تقنع حامدًا! أنا من أقنعك! بأن نحتضن مجدي! فتخيلت شـــكلك بنفس طريقتك في فرد الدبوس وأنت تغلي الرضعة، ثم تخيلت مجدي بشنبه العريض وهو يلقفها بفمه، فرُحت في كريزة ضحك، وأنت تعرفني لا أســـتر بتلك المواقف.. فقال بحزم كأب وبنفس النبرة التي تعرفها: "حقه عليكما بحكم العشـــرة والصداقة ألا تتخليا عنه، وتعرضاه على طبيب ولو بالقوة" طبيب! الحل الوحيد لمســـألة الطبيـــب والاحتضان تلك أن

اكســـر رقبته ثم يتأبط أعناقنا إلى الطبيب.. لم يقل عم ســـعد الكلام بتلـــك الركاكة التي أحكي بها بالطبع على الرغم من قوله نفس هذا الكلام.. لكن لا أعرف! ماذا يقول هذا الرجل الساحر الخرف!! لقد تبخر بالهواء يا حامد صدقني.

- في هذه المسألة بالتحديد أصدقك قطعًا، لكن ما يشغلني.. أهناك أشياء لا يعرفها عم سعد؟

- عمك سعد رجل قديم.. قديم جدًا.

منذ أسبوع على الأكثر، وبينما كان حامد وهند في لحظة أستغفر اللـه العظيم -راوي تلك الحكاية شيخ، ولا يحب الخوض في أعراض الناس، كأنما حين قال أستغفر اللـه العظيم لم يخض، ما علينا فما أنا بنهاية الأمر إلا أذن كبيرة، ولسان ثرثار، وليس لي أن أحكم على أحد- قالت له هند:

- تصـــور أن علي النوبي يتبعني كلمـــا جئت لك الدكان، وكأن الدنيا لم يبقَ بها سوى هذا الدلدول هو الآخر، زادت بجاحته بالمرة الأخيرة، لولا أنقذني منه عم ســـعد، نظر إليه نظرة تحذير، نظرة تعني اذهب وإلا.. فما كان من هذا النوبي وألاضيشه إلا أن طاروا.. إلا ماذا؟ لم أفهم! بدا الأمر وكأن عم ســـعد يمسك عليه ذلة، لدرجة أني قابلته في اليوم التالي بشـــارع الجمهورية وأنا بطريقي للبيت، فانشـــغل بالكلام مع طراطيره وكأنه شخص مهم، ولما نظرت له باحتقار طأطأ رأســـه، تعرف لمَ نظرت له باحتقار يا حامد؟ أقول

لــك.. كي يفهم ويتأكد أني عرفت تلك الذلــة، وأحتقره من أجلها، فينكسر أمامي كما ينكسر أمام عم سعد.

كانت هند تسأل وتجيب بل أحيانًا تفترض سؤالًا من حامد فتسأله هي عنه وتجيبه وتضحك عنه أيضًا، بينما كل ما يفعله حامد في تلك الحكاية هو هز رأسه بالإيجاب أو النفي، وقد يبتسم أحيانًا.

- ستسألني بالقطع وهل عرفت تلك الذلة؟ أقول لك.. لقد حاولت بكل الطــرق لدرجة أني بكيت.. يهديك يا عم ســعد.. يرضيك يا عم ســعد.. حتى إني -أستغفر اللــه العظيم- جلست على حجره في غنج ودلال.. حايلته بكل الطرق.. فقد كاد الفضول أن يقضي عليّ -ليســت هناك حاجة بالطبع للتذكير بأن الراوي شيخ وأستغفر اللــه العظيم هذه ماركته المسجلة، وإن كاد الفضول أن يقضي على هند فقد قضى بالفعل على راوينا الشــيخ، فقــد كان يتعذب إبان حكيه تلك التفصيلة، ويلوم على عم ســعد في نفســه (وهل بمدينة كتلك أسرار..)، وقال كأنما يتحدى عم سعد نفسه على احتفاظه بهذه الذلة وإصــراره على عدم البوح بها: "ســأعرف مهما طال الزمن.."..

يحكي بعين منطفئة زائغة، مؤرقًا دون مزاج، فما أقســى أن تغيب تفصيلة عن الراوي نفسه -إلا أن شيئًا شغلني عن فضولي.. خاطرًا برق بعقلي.. فقد ظلت ابتسامة عم سعد تنير روحي.. تلك الابتسامة النبيلــة المحبة المطمئنة.. أنت تعرفها يــا حامد.. لا أعرف كيف أصفها.. كأنما تحملك سحابة في السماء.. لم يحكم عليّ رغم كل ما فعلته أو تتغير سريرته.. بل لم يحكم عليّ أبدًا رغم كل ما حكيت له

من وساخات.. في المرة الأخيرة نظر في نن عيني بقوة.. لم يجرؤ عليهـــا زجل قبله.. ووضع يده الطيبة على رأســـي بعطف حملني بالهواء، ثم قال لي: "إنما فتنتك لعنتك يا ابنتي.." قالها بإشفاق خلع قلبي يا حامد.. لو قالها غيره لأكلت روحه.. إنما أمام هذا التعاطف وهذا الصدق أقف تائهة.. لا ملاذ لي ســـوى براح حضنه.. بكيت بحضنه.. بكيت يا حامد دون أن أعرف ســـببًا واحدًا لذلك.. وظل يهدهدني كأم.. في لحظة لو وضعتها أمام حياتي كلها بميزان واحد لرجحت - كانت الدموع تتلألأ بعينيّ راوينا الشيخ، حتى إنه لم يقل أستغفر الله العظيم على هذا الحضن من شدة تأثره، حكى جملة عم ســـعد بإيمان كامل، كأنما ود لو كان هو من قالها وليس عم سعد.. هاتفتني زوجتي في تلك اللحظة فانشغلت عنه مضطرًا، فود الشيخ لو يقتلني أو يكســـر الهاتف أو يكمل الحكي لنفســـه- كانت سومة تحبـــه.. تقول له دائمًا لو كنت أصغر ثلاثين ســـنة ما تركتك أبدًا.. وتقول لي إذا ضاقت بكِ المدينة بحماقتها في أي وقت عليكِ بعمك ســـعد، فهو الوحيد تقريبًا الذي يمكن أن تسميه رجلًا - كان راوينا يبتســـم برقة ويغضب ويضحك ويرقـــق صوته، ثم يجعله عريضًا عميقًا منتقلًا مـــن حدث لحدث، ومن حكي لحكـــي، يروي وكأنه يعرف أحداثها لأول مرة معك، كان راويًا شـــريفًا، فحينما جاءت بروايتـــه تفصيلة لا يعرفها، ذكرها معترفًـــا بجهله بها، وكان من الممكن أن يقول على النوبي أي شيء ولن يراجعه أحد.

غير أنه لم يكن كامل الشرف، فقد قال جملة الست سومة رحمها الله نقلًا عن هند ساخرًا "يمكن أن تسميه رجلًا!" رغم أنها قصدتها جادة، بل مؤمنة بها، كما هو واضح من سياق روايته بما لا يدع مجالًا للشك.

أتوقع أن حامدًا ظل منتظرًا بشوق طوال حكيها تلك اللحظة التي يختفي بها عم سعد، لحظة الذروة، قمة جبل الحكاية الشاهق والسقوط المروع بعدها، آن يكون الحاكي بين يقينين، قدم على القمة وقدم بالهواء.. في انتظار رؤية تعابير وجهها، فالنظر لوجه هند وهي تحكي متعة في ذاته، فما بالك وهي تصعد بتعابيرها قمة جبل من هذا النوع، ثم السقوط المدهش الحر بعدها. بيد أن تلك اللحظة لم تأتِ أبدًا.

وربما كنت أنا من انتظرها! إلا أني أحمد الله أنها لم تأتِ، فكيف لي أن أصف تعابير وجهها في لحظة كتلك؟

منذ ثلاثة أيام، كان نعش يمشي على أربعة أكتاف، وراءهم رجل يرفع سبابته للسماء، خمسة رجال ونعش، يشبهون التشبيه في سورة الكهف، دون التوالي العددي، ودون رجم الغيب بالطبع. يعبر النعش شارع السوق العمومي بخفة ودون جلبة، حتى إن الرجل الماشي وراءه يناجي ربه.

وبنفس اللحظة كان رجل شديد الغيرة على زوجته يحدج حامد بنظرات مربكة، بينما يفرد حامد قطعة نوم قصيرة للزوجة الشهية،

كثيرة التسبيل والكلام، وبنتان فاتنتان دخلتا الدكان، والسوق يشغي كأنمـــا على أوله بوابة مغلقة بالحديد كانت تحتجز المدينة، وفتحت فـــي هذا الوقت لأول مرة، يمينك يا أســـتاذ.. بصـي قدامك يا أبلة، مولد لم يره الســـوق من فترة بدت كدهر لتجاره، يطير النعش بين رؤوس رواده بنعومة.

يطير في الزحام، كأي حمل تدفعه أعناق رجال، لدرجة أنه لم يستوقف نظر حامد في حينه. وفي حين كونها لمحة بسيطة، إلا أنها انطبعت بعينيّ حامد كصورة ثابتة، عرضت نفسها على عقله مرات عديدة، بيد أن انشغال عقله حال دون تأملها، ووقت هدأ استدعاها وفصص تفاصيلها، فلما وجد بها نعشًا سأل: نعش من هذا يا أهل الخير؟

بين مرور النعش وســـؤاله ثلاث ساعات على الأقل، تبدل حال السوق فيها مرات ومرات، قال السريحة: أي نعش!! وقال التجار: قـــد يكون لفلاح من الريف ضل طريـــق المقابر، وعلى الرغم من كون الصورة التي رسمها التجار للنعش مغرية للتأمل، نعش ضل طريـــق المقابر، إلا أن حامدًا منع نفســـه من تمثلها بذهنه، مفضلاً الحصول على إجابة لسؤاله. وقالت نسوة ربما نعش خالٍ في طريقه لميت. غريبة فعلا أن يفجر نعش كل هذه الشاعرية.

كان حامـــد حائر العين، يبحث عن عم ســـعد ليعرف منه الخبر اليقين، إلا أن عم سعد رجل يأتيك لا تطلبه.

- أكانت جنازة؟
- لا نعش فقط.
- إذن أصاب النسوان كعادتهن.

البارحـــة، والبارحة فقط، جاء شـــخص بنبأ، صـــار حقيقة في الطريق، دون أن يتبين إنسان! نبأ صار خبرًا صار حقيقة في دقائق. صنع شـــخص حقيقة لتوه، أكدها ســـوق بأكمله وشالتها المدينة في سجل حقائقها، وكانت هذه الحقيقة هي موت عم سعد منذ يومين.

"وكأن عم سعد كان موجودًا!" كان هذا التعليق الساخر لحامد، لأول وهلة وصلته تلك الحقيقة، غير أن أثر الخبر بنفسه كان أعمق من قدرته على إدراكه من الوهلة الأولى.

واليوم وجب على المدينة أن تصحو دون عم سعد، دون جديده القديم وقديمه الجديد، ودون صفحات كثيرة من كتاب حكاياتها.

أكمـــل عم ســـعد اختفاءه، إلا أن القفص الـــذي يغطي الصرف مـــا زال قائمًا في مكانـــه، لا يكاد يختفي حتـــى يظهر من جديد، والمارة تنتبه قبله فجأة كأنما أثر من صوت.عم ســـعد ما زال عالقًا بالمكان "انتبهي يا بنتي.. انتبه يا ابني.." والطير الأبيض المتســـخ هل كان عم ســـعد يعرف اســـمه؟! والقطط تموء، والعصافير على الأسلاك، والنقر تفاخر بعضها بالأسفلت.

وحامـــد عرف أســـماء طيور كثيرة دون جـــدوى، فقد أضحى يخـــاف على منى الصغيرة أن تعرف، حتى الهدهد لم يعد يثير فيه

أية دهشة، ولم تعد ليلى تهتم لرأيه في شيء.

وسارة يا عم سعد ألا قلت لي خبرًا أخيرًا عنها؟؟ والرسالة ألا أكدت لي صحتها؟! وصبحي وعبد الجليل وسومة والحاج عبد الله، ألا تذكرت شيئًا من سيرتهم فاستطعنا وصله بالحكي؟ ومدير الجمعية الزراعية ألا ذكرت شيئًا عنه؟ ومازورة وصفوت وأشرف ووجيه وناجي والدكتور أكان يجب علينا أن نستدعي للدنيا كائنات كتلك، والست شربات والست فادية؟ وبمناسبة فادية ومريم، كان الأجدر بك حكي الوصلة التي استطعت من خلالها الربط بين البنت وأمها لي أنا بدلًا من ناصيف، أنت تعرف ناصيف فاشل لم يستطع ذكر رابط واحد، بل لم يستطع ذكر اسم اهتدى به، ووهبة يا رجل! وهبة؟ والمسكينة، وهند.. هند يا عم سعد لم يزل لديها الكثير.

- نعش من هذا يا أهل الخير؟

- نعش عم سعد.

- إذن فقد أصاب النسوة كعادتهن.

***

الرمال، والخطوة تسلم الخطوة بنفس البرواز، الأصفر والأزرق وبقع الضوء بينهما، ونقطة سوداء تسعى، وكأنما أخطات الريشة، هل يعرف الرسام شيئًا عنها؟!

كان مجدي يقلب نفس الرمل بأرجله قبل كل خطوة، والشمس

بيضاء كعين رجل أعمى، وزاد القلب فسد وأكله مضطرًا. ولو كان صبر بالروح ما كان هنا، ما أشبه الرمال البعيدة بالملح. وما أشبه الملح بطعم حلقه، إلا أنه الرمل بعينه.

ما أقسى الوحدة بكل هذا البراح، لو رأى إنسانًا أحس بأنه نجا، لا اتجاه هنا ولا أمل في اتجاه، فحدوده السماء أينما ولى. كيف لعينيه أن ترى ما يرى؟! يشاهد السماء كشاشة سينما، يرى أشلاء من أحبته تخرج من بعضها، كيد تمتد من عين تنظر بعطف ومحبة، وإصبعين بسبحة من بين رجلي أنثى، وآذان تخرج من أفواه تخرج من ألسنة وتعيد الكرة، وقلب قبل قماشة شدها فلم يرَ شيئًا.

- لِمَ تركت الدليل يا أبا عبد اللـه؟!

فتـــح مجدي عينـــه بصعوبة بالغة على هـــذا الصوت الأجش، استغرق أربع دقائق أو أكثر قليلًا، ينظر خلالها بوجوم إلى الوجوه المحدقـــة فيه، في محاولة منـــه للتأكد بأن ما يحدث ليس بعضًا من خيالاته.

"أبو عبد اللـه!" تلك الكنية هي أكثر ما أرهق عقله خلال الدقائق الأربع، لولا تأكيد الوجوه المحدقة لاســـتغرق أكثر من ذلك بكثير، ليدرك أنه المقصود بها. كانت الجماعة كلها أبا فلان وأبا علان إلا مجدي، بدا وســـطهم كطفل صغير، أو هكذا أحس، حتى أنعم عليه

الشيخ وهبة فيما يشبه الترقية بذات الكنية "أبو عبد اللـه"، فاستوى بينهم كواحد منهم.

امتلأت نفس مجدي بفخر ما بعده فخر. في آخر حوار جمعه بحامد كاد أن يصرخ به قائلًا: "اسمى أبوعبد اللـه.. من مجدي التافه هذا!" بيد أن شيئًا لم يستطع تحديده منعه من ذلك، على الرغم من جرس الكلام الجميل بنفسه.

ومن جهة أخرى كشـــفت عن جرح غائر بروحه، كان قد غطاه باليأس لســـنين وسنين. أبو عبد اللـه "لو كان لي عبد اللـه بالفعل.." يومًا وراء يوم كان قد ألّف ســـيناريو مليئًـــا بالتفاصيل لعبد اللـه، وملامح وجهه وشـــعره، وأضافه إلى أحـــلام يقظته المعتمدة، ولو صادف أي موقف تربوي له فيه وجهة نظر، انسحب من بين الناس بســـرعة مختليًا بنفســـه، وراح يتمثل حلم يقظته الجديد، ويتناول الســـيناريو بالتعديل، ســـواء بالإضافة أو الحذف، ولو أن الإضافة تستتبع الحذف والحذف يستتبع الإضافة، وعبد اللـه في خياله طفل بكل الأعمار، يحدد عمره بحسب الموقف التربوي المراد.

- كان اللـــه في عونك يا عبد اللـه.. عبد اللـه أمانة بعنقك يا عم سعد- نسي اسمه بالفعل، وليس بالكلام، فقد ظل ما يزيد على الأربع دقائق كي يتذكره، طرد الحرف وراء الحرف من حلقه بمشقة..

- ما تركت الدليل، إنما أزاغت الشمس عيني، فما انتبهت إلا كنت أمام الصحراء وحدي.

- لكننا وجدناك حتى وإن تركك الدليل.
- لأنكم الدليل الحق بارك الله فيكم.
- ما كنا لنترك رجلاً منا خلفنا أبداً.
- أيترك الحق بعضاً منه؟! الحق واحد كالإله الواحد.
- لا إله إلا الله، ولأنك من الحق. فتعلم أن نصر الله قد جاءت بشارته، وكلل الله جهدك وجهد الإخوة بالفلاح.

كان دور مجدي بهذه العملية أن يضع علامات سوداء بالفرشاة على البيوت التي يشير عليها قائد مجموعته، كل ما يعرفه مجدي عن تلك البيوت أنها لأعداء الله، وكانت تلك أول مشاركة فعلية له، بعد المشاركة في التحضير لخمس عمليات من قبل، كان يتأكد من خزانات الوقود، وتجهيز المؤن للعملية، وغير ذلك من هذا النوع من الأعمال.

طوال تلك الفترة، أثبت مجدي فشلاً غير مسبوق بتاريخ الجماعة، في التدريب على السلاح واستخدامه بشتى أنواعه، لم يمس شاخصه أي أذى ولو بالسكين من مسافة قريبة، وكان يطلق من المتعدد زخات من الرصاص، فتحدث المعجزة ويخرج الشاخص دون ثقب واحد.

إلا أن اللحظة التي يمسك بها الرشاش، كانت فرحته فيها كفرحة إنسان تعلم الطيران، لم يلقِ بالاً لتعقيدات الجماعة واهتمامهم بتفاصيل تافهة، كمعرفة أجزاء القطعة التي يستخدمها، والتدريب على فكها، وتركيبها، والشاخص، والساتر، والزحف على البطن،

والعدو، وغير ذلك من أمور، رغم أنه فعل كل هذا مضطرًا. كان الأمر بذهنه أوضح من ذلك وأبسط، يمسك بالرشاش ويقتل أعداء الله، هكذا، فما حاجتنا إلى كل تلك التعقيدات!

كل مـــا فات في كـــوم والالتحام الجســـدي والتدريب عليه كوم وحده، يقسمهم القائد إلى مجموعات صغيرة من فردين، كل أخ فيهم يختار رفيقه بنفس مســـتواه، أقل قليلًا، أعلى قليلًا، ويبدأ العراك، يطرح الأول الثانـــي في مرة، ويطرح الثاني الأول في المرة التي تليها وهكذا.

ما اختار مجدي واحدًا منهم، كبيرًا أو صغيرًا، قديمًا أو حديث العهد، إلا وطرح مجدي على ظهره بسهولة، وتلك المسألة كانت تنال من هيبته أمام نفسه حد الرغبة في البكاء كالأطفال، فيقوم في دوره ليطرح الثاني، ويظل يعافر فيه بغضب مسعور، ويحفر الرمل بقدمه إلى أن ينطرح هو على وجهه. يُقلَب على ظهره مرة وعلى وجهه مرة بالرمل، كأنما يجهز لتشويه الشمس، باختصار كان مجدي مخلصًا للفشل إخلاصًا ندر أن تجده هذه الأيام.

علـــى الرغم من كل ما فات لم يكن مثار ســـخرية أي منهم، بل على العكس كان قائد المجموعة يـــرى فيه صادقًا مثاليًا يُحتذى به في الإقدام والشـــجاعة، ففي يوم تنفيذ العملية الوحيدة التي شـــارك بها، كان الإخوة كلهم يتحركون بحذر بين ساتر وساتر، إلا مجدي يمشـــي بوسط الطريق مكشـــوفًا، ينفذ ما يُطلب منه ببساطة، حتى

إن واحدًا من البيوت كان أهله بالشـــرفة، فنظـــر إليهم غير عابئ بشيء، ووضع علامته ومضى. صحيح أن تلك التصرفات أثارت اســـتياء القائد وقتها ونهره أكثر من مرة، إلا أنه تعجب من جرأته وشجاعته.

لم تكن شجاعة مجدي بالمعنى المفهوم لكلمة الشجاعة، فهو لا يعي الخطر من الأصل مهما حاولت شرحه ومهما بدا عليه الفهم، لذا كان يلقي بنفسه في النار غير عابئ بشيء.

لـــو وصف الإخـــوة شـــخصًا بالبطولـــة لتفانيه فـــي الدعوة، أو التضحية من أجل الحق، يقول بنفســـه غير مبالٍ: "ماذا فعل لكل هذا!! أســـتطيع أن أزيد على ذلك بسهولة.." فتأتي تعبيرات وجهه بما يعتمل في نفسه، بوضوح شديد لا يخطئه ناظر، وبينما تثير تلك التعبيرات وما شـــابهها استغراب الإخوة، كانت تثير بأبي مصعب قائدهم الحماس قائلًا له:

- لك عزم يذكّرني بأبي قتادة.. ألحقنا اللـه به.

- ماذا فعل؟ وأين هو؟

- ضحى بنفسه في سبيل اللـه، في موقعة ظل العالم كله يتحدث عنها أيامًا وشهورًا، أفنى فيها من أعداء اللـه الكثير، وزلزل عروش الجبابرة الفجرة.. هو الآن في الجنة مع الشهداء والصديقين.

- اللهم ألحقنا به.

- اطلب الشهادة صادقًا تنَلها يا أبا عبد اللـه.

- واللـه إني لصادق.
- وأنا أحسبك على ذلك يا أخي.

في تلك الأثناء جاءت مكالمة الشيخ وهبة للإخوة، المكالمة التي حاول فيها بـــكل الطرق إثناء الجماعة عـــن ضم مجدي لصفوف المجاهديـــن، واقتصاره على الدعوة بالمدينة، كان الشـــيخ قد عقد النيـــة لإجرائها في فترة ســـابقة، إلا أن الأخبـــار التي وصلته عن فشـــل مجدي جعلته يأنس التأني، عســـى أن يأتي الأمر منهم، بدلًا من وســـاطته التي قد يراها البعض تقديمًا لمصلحته على مصلحة الجماعة. ولما عرف بمشـــاركة مجدي خانـــه الصبر، فتكلم دون ترتيب أو إعداد، فجاءت المكالمة بكل ما في نفســـه دون موارة أو حسابات.

بمجرد أن رد عليه أبو مصعب السلام، أدرك الشيخ وهبة أي مأزق وضع به نفسه، فأطال من الصياغات التي ألفوا تبادلها فيما بينهم، تلك الصياغات التي لا تحمل موضوعًا في ذاتها، مثل: أعانكم اللـه على طاعته، أو: تلك فريضتنا الغائبة، أو: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(*)، أو: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(**)، بالإضافة إلى: اللـه المستعان والبسملة، والصلاة على النبي مع كل هنة، عسى أن يهتدي لخطة يقول بها حاجته بأقل الخسائر، ولما أيس قال ما عنده دفقة واحدة، لدرجة أنه تكلم عن

(*) سورة المائدة، الآية: 56.
(**) سورة الأنفال، الآية: 18.

المسكينة، ومصيرها، ودنو الأجل، وغير ذلك مما يعتمل بنفسه، إلى أن جاءه رد أبي مصعب بالحرف الواحد:

- يا شيخ.. ليس لمثلك أن يقول كلامًا كهذا.

أنهى أبو مصعب المكالمة وعاد للإخوة فلم يجد مجدي بينهم، فأخذه القلق خشية أن يكون هناك رابط بين المكالمة وعدم ظهوره.

بينما كان انسحاب مجدي لحلم يقظة فاجأه، فلم يقدر على تأجيله. غادرهم بحجة تعرفها شفتاه، هو نفسه غير متأكد من قدرته على تكرار نفس الحجة لو سئل عن سبب غيابه. آوى إلى كوة بجدار البيت القديم، وجلس بعد أن تأكد من خلو المكان، فمتعته بحلمه لا تكتمل بغير سماع صوته، وتمثل أصوات أبطاله، بل إن حلم يقظته الكبير هو أنه وجد مكانًا يستطيع فيه تمثل الأحلام التي تأتيه بصوت عالٍ.

رأى نفسه بطل موقعة ظل العالم كله يتحدث عنها أيامًا وشهورًا "العالم كله يتحدث.. أي كل تلفازات العالم.. صورتي بنصف الشاشة.. والنصف الآخر مذيعات من.. كل العالم.. يتحدثن.. البطل.. الذي زلزل عروش الجبابرة" وبدأ يُدخل شخوصًا، ويُخرج شخوصًا، يتخيل مثلًا نفسه بدلًا من الشيخ وهبة، أو حامد، أو حتى مازورة، وهم يشاهدون صورته بالتلفاز، ويتمثل انبهارهم بشخصه وبطولته.

إلا أن شـــيئًا لا يعرفه خاطئ بالسيناريو، شيئًا يفسد عليه متعته، رجح في أول الأمر أن يكون هذا الشـــيء هـــو رفض ذهنه تمثل عبد اللـه، وفخره بأبيه، بعد وهلة وجد ثغرات كثيرة بالســـيناريو، فمثلًا ما هو شـــكل الموقعة التي كان بطلها؟ وأي نوع من البطولة كان؟ أيكون بطولة منفردة من الجلدة للجلدة؟ أم يشـــرك بعضًا من أحبته بالبطولة؟ وإن كانت بطولات أقل شـــأنًا للشيخ وهبة مثلًا أو أبي مصعب.

بعد محاولات شتى باءت بالفشل لضبط السيناريو، وما يشبه الندم على استعجاله قبل أن يختمر بذهنه، عاد للإخوة خائبًا حزينًا، مما أكد قلق أبي مصعب، وعزا حزنه لمكالمة الشيخ وهبة، فبادره قائلًا:

- أنادم على وجودك معنا يا أبا عبد اللـه؟

- معاذ اللـه يا شيخنا.

- عمك الشيخ يريدك في المدينة بجواره، فما قولك في هذا؟!

"أيريدني الشيخ وهبة بالمدينة! بعد كل ما بذله حتى أتيت هنا!! أيكون اختبارًا لولائي؟! أما زال انتمائي مثار شـــك؟؟!" وشى وجه مجدي بحيرة شديدة أدخلت الطمأنينة إلى نفس أبي مصعب القلقة، فاستطرد وكأنما سمع ما دار بعقل مجدي:

- يا أبا عبد اللـه أنت منا، لك ما لنا وعليك ما علينا، ولا نشك بصدق بيعتك، فأحسن الظن بأخيك، إنما سألت لأمر عظيم، أعده

لك، وأعدك له.. فإن رغبت التجارة.. والزوجة.. رتبنا إقامتك على أمر الدعوة بالمدينة بجوار عمك، وجهزنا أبا صهيب -أشار بيده على الأخ الواقف يمينه- لهذا الأمر..

كان مجدي قد همّ بمقاطعته أكثر من مرة، إلا أن نظرات الشيخ المحذرة حالت دون ذلك، وبالأخص وقت قال: "أحسن الظن بأخيك". ما إن هدأت عين الشيخ حتى قاطعه قائلًا:

- أنا لها يا أبا مصعب.

قالها بصوت المجاهدين الأوائل -أو ما يتصور الراوي أنه صوت المجاهدين الأوائل- أوشك الحماس أن يُخرج عينه من مكمنها، حتى إنه قال "أبا مصعب" هكذا دون شيخنا أو مولانا، كانت نيته الاكتفاء بتلك الجملة الرنانة، إلا أن الفضول ومخاصمة الصبر دفعا السؤال على لسانه:

- قل لي ما الأمر؟ إنما أرغب عن الدنيا ومتاعها لأمر منك.

رد أبو مصعب بابتسامة يا الله على جمالها، كأنما يبتسم لأول مرة بحياته:

- حتى يحين الوقت.. يا أخي.. وشيخي من الآن.. أعد نفسك لمجد في الدنيا وما وعد الله به عباده المجاهدين الصادقين في الآخرة.

بعد هذه المحادثة قضى مجدي قرابة الشهر خفيفًا فرحًا، يقبل على التدريبات والمهام الموكلة إليه بنفس متسامحة نبيلة، حتى

الطرح بالأرض في العراك يقف بعده منتصبًا تعلو الابتسامة وجهه، ولأول مرة من تاريخ انضمامه للجماعة يطرح رفيقه بالأرض، لكن ليس لدرجة أن يصيب الشاخص، فقد كان يحافظ عليه كأحد أحبائه.

كلما استدعى حلم يقظته، وجده الواقع، وكلما فكر في واقعه رآه كواحد من أحلام يقظته على وشك التحقق. لم يستطع ذهنه أن يضيف على واقعه شيئًا يذكر، ذابت المسافة بينهما، يعيش لأول مرة بحياته حلم يقظته، ليس بصوته فقط لكن بجسده وروحه، يتكلم بالصوت الذي يحلو له، عالٍ هامس، كيفما أحب، يشاركه به أشخاص موجودون بالفعل، حتى إنه لم يكن ليحلم بكل تلك المتعة.

لم يجرؤ أي أخ على مناداته بغير "يا شيخنا" أو "يا مولانا"، بل إن أبا مصعب نفسه حين يسأل: أين الإمام؟ دون ذكر اسم، يعرف الإخوة مقصده ويهمون باستدعاء مجدي.

ولم يكن لإنسان غيره حق الدخول على أبى مصعب خلوته، فلا يمر يوم دون أن يجتمع به أبو مصعب، ليستزيد من نوره على حد قول الرجل.

بعد أن ينقل له سلام المجاهدين من شتى أرجاء الأرض عبر السكاي بي، وفي أحيان تدور بينهم وبين مجدي محادثات قصيرة، كرجل اسمه أبو بكر ذو هيبة بادية، يشيد به وينقل له تحية

المجاهدين في الشـــام، وتطلعهم إليه كقـــدوة ومثل. وفي الحقيقة لم يعرف باي مكان تقع الشام تلك. ورجل اسمه أبو عمر لا يقل هيبةً ومكانةً، بكلام مشـــابه، من دولة لم يستطع مجدي نطق اسمها حتى هذه المرة.

وهكذا، وسط فرحة طفولية ساذجة منه، لا تخلو من انبهار بما يحدث، وكيف يتكلم معهم ويراهم، والأدهى أنهم يرونه ويسمعونه أيضًا، حتى إنه أخذ يحرك يده أثناء كلامه أمام الشاشة بدهشة لا تخلو من نزق.

وبينما ابتسامة أبي مصعب الرائقة لا تفارق وجهه، يدور الكلام بينهم في شتى الموضوعات..

- كيف أتاك اليقين يا أبا عبد اللـه؟

- فكرت كيف نشأ هذا الكون؟ وقلت: اللـه.. أنشأه من العدم، ثم فكرت كيف ينشئ اللـه العادل هذا الكون ويترك الظلم يعم ويحكم؟ وقلـت: تلك رســالة من اللـه لنا حتى نفيق ونعــود إليه، ثم فكرت ما الحل إذن؟ وقلت: ما دام اللـه هو المنشـــئ فلا ســبيل غيره، ثم فكرت وما الســبيل؟ وقلت: أن نفهم الرسالة ونعيد شريعة اللـه إلى الأرض، ثم فكرت وما المانع؟ وقلت: الفسدة والجبابرة والطواغيت هــم المانع، ثم فكرت من يحاربهــم؟ فهداني عقلي إليكم بعد تفكير وحساب...

نقل مجدي خطبة الشيخ وهبة في الجامع الكبير كاملة تقريبًا،

مع بعض التغيرات البسيطة، فبدلًا من "هل فكرت يا مؤمن كيف نشأ الكون؟" إلى آخره، حذف كلمة "يا مؤمن" وأبدل ضمير الغائب بضمير المتكلم، وأكمل الخطبة ناسبًا إياها لنفسه، وكأنما رده، لذا أكد على أن هذا الكلام نتاج عقله دون أن يُطلب منه، على الرغم من كونه لا يعي كلمة واحدة مما قال.

- وهل تثق بعقلك يا أبا عبد اللـه؟

- ربنا عرفوه بالعقل يا شيخ.

- أتظن أن عقلك يدلك على اليقين؟

- بالطبع، فقد هداني إليكم.

- إنما هــداك اللـه.. أعلى تلك الأرض من يملك يقينًا؟ أي يقين غير الموت؟! أقبل بأن الشــمس يقينًا ستشرق غدًا، لكن أتملك يقين مشاهدتها! تقول بالعقل! أي عقل هذا؟ ألا يروعك عقلك في النوم؟ كم حلمًــا صدقت وآمنت أنك هالك لا محالة؟ كــم حلمًا رأيت فيه بعينك، ولمســت بيدك الجنة؟ ثم ماذا بعــد، فقط تفتح عينك لتدرك الخديعــة.. هل كنت لتصدق ولو حلــف لك الإنس والجن بأن ذلك حلم وقتها؟ ما أحكام العقل إلا نتاج الحواس، وكم تخدعنا حواسنا.. انظر إلــى الصحراء وقل لي ماذا ترى.. بــل قل لي ماذا يخبرك عقلــك؟ أقول لك: يحدّثك عقلك عن ماء الوهم كيقين.. فاذهب ولن تجد غير الصحراء فاقطعها إلى الماء وراءها تجد الصحراء.. إنما العقل خطيئة العلمانيين الكفرة.. يا شــيخي وأخي.. اليقين هو نور

اللـه بقلبك.. تطلبه بنية صادقة، فإن صدقت اللـه صدقك.. أيصدق عقلك البراق؟! أيصدق عقلك أن النار لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السـلام؟! أيصدق أن عيسى عليه السلام يحيي الموتى؟! إنما شرح اللـه قلبك للإيمان.. فأطعت وآمنت.

لأول مرة تقريبًا يفهم مجدي كلامًا بحياته، لم يفهمه بالضبط بل قل تنفسه، وبالأخص موضوع الحلم هذا "في النوم واليقظة يا شيخ" ومسألة الصحراء "كدت أشرب واللـه" نزلت كل كلمة لأبي مصعب بمكانها المراد في روحه بدقة "نعم.. نعم.. آمين".

- فتح اللـه عليك يا مولانا.. واللـه هذا ما أردت أن أقوله بالضبط.. لكن اللـه لم ينعم عليّ بفصاحتك.

- تكفينا فصاحة قلبك ويقينه يا أبا عبد اللـه.

فـي كل مرة يذكر أبو مصعـب تفصيلة عن هذا الأمر العظيم، وكأنما جـاءت عفو الخاطر، في مرة مثلًا يسـأله أتعرف المدينة الفلانية؟ ثم يستطرد حسنًا، تحل بها في الغد بمصاحبة أبي صهيب، وفـي المرة التي تليها: أرأيت الشـارع الفلاني؟ دقق النظر به في الغد، وهكذا.

كان يتم رسمه تقريبًا في سفره، العربة الجيب، البدلة، الحذاء، نظارة الشمس، الشنطة الجلد، وأبو صهيب كسائق له، في اليوم الخامس كانت الجماعة قد استأجرت له بيتًا جميلًا بالشارع المراد، يقضي بشرفته أغلب الصباح، وقبل المساء يعود أدراجه.

مرة أعطى قرار الأمر بتعبئة نموذجه لبيته الجديد مائتي جنيه يحضر له علبة سجائر، وترك له الباقي بالإنصاف كانت تلك فكرة أبي مصعب فكان الحارس لا يثنيه بغير سعادة البشا، ويعظم له كلما زاد. لقد تخطى الأمر كل أحلامه مجتمعة، فهو بالشارع سعادة البشا، وبالجماعة الشيخ ومولانا.

في المرة الأخيرة قدم أبو مصعب من التكانه في استقبال مجدي، ووضع كفيه على كتفي مجدي ونظر في عينيه طويلًا، قبل أن يمسك رأسه بيديه ويقبله في جبينه.

- يا أخي وشيخي.. الآن تتبوأ مقعدك بالجنة.. أترى تلك السترة؟!

- أراها يا أخي.

- أما زلت لها؟

كانت السترة أول شيء لاحظه مجدي وقت دخوله الخلوة على أبي مصعب، معلقة أمام بدلة سوداء على نفس الشماعة، وبالطو أسود طويل على شماعة مجاورة لها، تم وضعها بعناية شديدة لا تتناسب وجو الغرفة، أزاغ البالطو عين مجدي قليلًا، إلى أن أشار الشيخ على السترة فعاد إليها مرة أخرى.

كان للونها الكاكي على الخلفية السوداء الزاهية، والعلب البلاستيكية البيضاء المخبأة بجيوبها، والأسلاك البرتقالية التي تصل تلك العلب، منظر مهيب، ترك بنفس مجدي إحساسًا بالخطورة والأهمية بنفس الوقت.

بدأ يتخيل نفسه وقد ارتداها، فاستقام بوقفته رادًا كتفيه للوراء، وانتفخ صدره بما ملأه من عظمة "بل هي لي".. أحس بنفسه كملك الموت، يخافه كل إنسان مهما بلغ من القوة والجاه "إنما أرسلني الله لكم" يحمل اليقين الوحيد للغافلين الناعمين بحياة الدعة والراحة "حان وقت الحساب"..

- إنما يحمل اليقين صاحب اليقين يا أبا مصعب.

- هذا ما يقوله من صدق الله وصدقه.. فاخلع نعليك يا أخي، وانزع عن جسدك زينة الدنيا، وعد كما جئتها.. هذا ماء زمزم جاء به إخوة لك من الأرض المقدسة، أطهرك به من دنس الدنيا..

بدأ مجدي في خلع ملابسه، القطعة وراء القطعة على مهل، حتى وصل إلى القطعة الأخيرة، فنال الحرج منه على إثر بروز غريب وكالعادة "لا وقته ولا مكانه".. لاحظ أبو مصعب فالتفت إلى السترة واستطرد:

- أترى هذا الزر.. بينك وبين حور العين أن تضغطه بكفك هكذا -مثلها وضرب بكفه على جنبه- ببطن كفك.. بكامل كفك يا أخي.. هكذا..

إبان التفاتة الشيخ كان مجدي قد استلقى على ظهره بفراش الشيخ، وغطى نفسه بملاءته، نزل الشيخ على ركبته وبدأ يغسله..

- اللحظة التي تتوسط بها أعداء الله يا أخي.. تضغطه هكذا.. هكذا.. وقبل أن تغمض عينيك تكون بين حور العين.. وكأنما وُلدت هناك.

كان اهتمام مجدي ببروزه قـد فتر، ورأى حور العين، واحس بنعومة ريـش النعام الأبيض الثلجي، واسـتوى بينهن على الماء بخفة، وأنهار من العسـل تجري، وعضـوه كجذع النخلة، يتكالب اللحـم عليه، يمد يده في كسـل لذيـذ ليقطف ما دنا من السـماء شهيًا طيبًا.

أفاق من رؤيـاه على يد أبي مصعب تدفعه للوقوف، فبدأ يلبس القطعة وراء القطعة على مهل، السـترة، القميص.. إلى أن تطيب وأكمـل زينته، فانتصب واقفًا ومشـى خطـوة، وخطوة، وخطوة أخـرى، حتى يعتاد ثقل حمله، ولمـا اعتاده وضع أبو مصعب يدًا حانية على كتفه، وقرأ من كتاب اللـه حتى بلل لحيته.

فانتصب، فمشى خطوة، وخطوة، وقبل الباب بخطوتين خانته إحدى ركبتيه فسقط، فانخلع مع سقوطه قلب أبي مصعب، واندفع أبو صهيب إلى الغرفة عبر بابها الموارب على إثر شهقة من الشيخ بدت كصراخ مكتوم، ساعداه على النهوض بحرص وتؤدة، وقد تحسس كل منهما موضعًا ليده، إلى أن انتصب مرة أخرى.

غير تلك الرعشة الغبية السـخيفة التي فاجأته، لم يشعر بشيء علـى الإطلاق، لم يجبن ولم يكن له، حتى أحلام اليقظة غابت عن ذهنـه.. "ما هذا!.. أنا لها.." أخـرج أبو صهيب حبة من جيبه في عجالة ودسـها في فم مجدي ببطن كفـه كاملًا، وجاء أبو مصعب بكوب الماء..

- استرح قليلًا يا أخي.
- أنا لها.. أنا لها.. أنا لها..

كان مجدي يكز على أسنانه في غيظ، وكلما تكلم اصطكت أسنانه، فزاد غيظه، فكرر، أنا لها "قم يا جبان.." ظل قرابة عشر دقائق حتى هدأ، وقام معتمدًا على نفسه ومعتدًا بها في آن، ومشى صوب العربة دون أن ينظر إليهما، وكأنما يريد أن ينسيهما العشر دقائق الأخيرة، وأشار إلى أبي صهيب في ثقة دون أن يلتفت إليه.

- هيا..

وهكذا انطلق الموت من الشرق -وقد اتفق الرواة على ذلك- بكامل زينته، يطوي الرمل وراء الرمل، يصعد التلال ويهبط، البرواز تلو البرواز، أصفر الرمل، ثم أسود الأسفلت بنقره، فأخضر الشجر الباهت المتصل، والبيوت بلون الجلد تزاحم بعضها، والأحمر قادم لا محالة مهما كان بالسماء من الزرقة، والشمس خبأها يناير آخر على وشك الوصول، يدفعه الريح البارد والعفار، بل قل وصل. وملح الأرض على مختلف ألوانه يسعى، والريشة تتسارع في يد الرسام على غير هدى، والألوان تتداخل فلا يبين للناظر منها شيء، والحياة تقف في منزلة بين منزلتين، بين كفك اليمنى وكفك اليسرى، والموت بلا وجهة قد يأتيك، وأنت تقرأ، الآن..

الآن يا صديقي..

الآن يسعى.

تمت

المؤلف في سطور

وائل فؤاد ياسين

- مواليد 1977، بلقاس، دقهلية.
- حاصل على ليسانس الآداب والتربية، جامعة المنصورة.
- شاعر عامية نشرت له الدوريات الأدبية العديد من الأعمال.

البريد الإلكتروني:

wailyassen508@gmail.com

"منذ ثلاثة أيام، كان نعش يمشي على أربعة أكتاف، وراءهم رجل يرفع سبابته للسماء، خمسة رجال ونعش، يشبهون التشبيه في سورة الكهف، دون التوالي العددي، ودون رجم الغيب بالطبع. يعبر النعش شارع السوق العمومي بخفة ودون جلبة، حتى إن الرجل الماشي وراءه يناجي ربه. وبنفس اللحظة كان رجل شديد الغيرة على زوجته يحدج حامد بنظرات مربكة، بينما يفرد حامد [illegible] للزوجة الشهية، كثيرة التسبيل والكلام، وبنتان فاتنتان [illegible] السوق يشغي كأنما على أوله بوابة مغلقة بالحديد كانت [illegible] ت في هذا الوقت لأول مرة".

عبر استهلال [illegible] ره لنا العم سعد صاحب الرواية الكبيرة عن شارع السوق [illegible] د نفسك سريعًا في قلب الرواية التي تدور أحداثها في مدينة مصرية صغيرة وبالتأكيد سوف تردد مع "ماريو فيرجاس يوسا" أفضل القصص ما جاء تعبيرًا شعريًا عن الواقع.. فمن خلال لغة شعرية مكثفة استطاع وائل فؤاد (أحد شعراء العامية المجددين في مدينة الشعراء الكبار المنصورة) أن يرصد التحولات في بنية المجتمع المصري عبر جيلين وأن يغوص وبإيجاز شديد في أعماق شخصياته وأن يحتفي بأمجاد الحكاية وأن يشركنا بل ويورطنا معه في حكاية روايته الأولى... "أيمن باتع فهمي، قاص وناقد".

لوحة الغلاف إهداء من الفنانة الكبيرة: إيفلين عشم الله

تصميم الغلاف: عمرو عبد العزيز

9789774904806

العين
Elain Publishing House